

الْعِلْمُ

الْعَمَلُ

بِإِذْنِ
فَيْضِ الشَّيْخِ الْكَافُرِ

الْوَيْلُ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





مقدمة المؤلف

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

هذه رسالة في «العلم والعمل»، وهُما معًا سرُّ فلاح الفرد والأمة؛ لأنَّ كمال كلِّ إنسانٍ إنَّما يتَّمُّ بهذين النوعين: هِمَّةٌ تُرَقِّيه، وعِلْمٌ يُبَصِّرُهُ وَيَهْدِيهِ، فَإِنَّ مَرَاتِبَ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ لَا يُحْصَلُهَا الْعَبْدُ إِلَّا بِهِذَيْنِ، وَهُمَا: الْإِرَادَةُ وَالْعِلْمُ؛ فَالْإِرَادَةُ

باب الوصول إلى الصراط المستقيم، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه. والسائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية؛ فبالقوة العلمية يُبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصد سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب، وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر.

والجمع بين العلم والعمل من أكبر أسباب ظهور الأمة، واستقرار أمرها، ودليل ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في المجد سادة، وإلى رفيع الشأن قادة، وقد حققوا هذا الأصل تحقيقاً.

أخرج ابن سعد في «الطبقات» (١١٩/٦) بإسناد صحيح عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «إنا أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن ويعملوا بهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به».

وهذه الرسالة تضم -بحول الله وقوته- أطرافاً مما يتعلق بهذا الأصل الكبير، وهو العلم والعمل، ففيها بيان خطورة الفصل بين العلم والعمل، وبيان مثل عالم الشؤء، وبيان أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول، وأن سلوك رجل أجدي لألف رجل من كلام ألف رجل لرجل.

وفيه بيان مراتب العلم والعمل، وأن الاغترار بالعلم داعية البطالة وترك العمل، وأن الخلاص في الإخلاص، وإنما يتعثر من لم يخلص، إلى غير ذلك مما

يَسِّرَ اللَّهُ جَمْعَهُ وَتَحْرِيرَهُ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ الْمِنَّةُ وَحْدَهُ.

وَإِنِّي لِأُضْرِعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَتَوَسِّلًا إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْمُثَلَّى؛
أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِخْوَانِي مِنْ طَلَابِ الْعِلْمِ، وَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ لِلتَّمَسُّكِ بِهَذَا الْأَصْلِ
الْعَظِيمِ، تَمَسُّكًا لَا يَدْعُ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مَجَالًا، وَلَا لِلْهَمَّةِ الْعَالِيَةِ عَنِ
الْإِرَادَةِ زَوَالًا.

وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ، وَالْإِحْسَانَ فِي الْعِلْمِ
وَالْعَمَلِ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آبَائِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.
وَأَخْرَجُوا دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

سبك الأحد

الاثنين (٢٩/٤/١٤٢٩ هـ - ٥/٥/٢٠٠٨ م)

العلم والعمل

ألا إنَّ ثمرَةَ العلمِ العملُ، وكلُّ علمٍ لا يُثمرُ عملاً - في القلبِ أو الجوارحِ - فهو علمٌ يُلزِمُ صاحبه الحُجَّةَ أمامَ الله وَجَلَّ .

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣/٣٤٣): «قال أبو قلابَةَ لأَيُّوبَ: يا أَيُّوبُ! إذا أحدثَ اللهُ لك علماً فأحدثْ له عبادةً، ولا يكنْ همك أنْ تُحدِّثَ به الناسَ».

وإنَّما العالمُ مَنْ فَارَقَ الجُهَّالَ في العلمِ والعملِ جميعاً، فإنْ فارقهم في العلمِ وشاركهم في التخلُّفِ عن العملِ؛ فقد شاركهم لونَ مشاركةٍ ظاهريَّةٍ، وفارقهم في حقيقةِ الأمرِ وجوهرِ الموضوعِ.

وما مَدَحَ الشارِعُ العلمَ بما مدحه به إلا لكونه طريقاً مستقيماً يُفضي إلى أودية من العملِ الدائبِ والجدِّ الحريصِ؛ لأنَّ العلمَ مَطِيَّةُ السَّيْرِ إلى الله تعالى، والسائرُ إلى الله تعالى لا يكفيه أنْ يَحْوَزَ القوةَ العلميَّةَ جمعاً وتحصيلاً كي يفوزَ بالنجاةِ ويسعدَ بالفوزِ، بل ينبغي أنْ تتآزَرَ^(١) لديه القوةُ العلميَّةُ والقوةُ العمليَّةُ حتى يكونَ سيرُهُ إلى الله تعالى مُثْمِراً، بل حتى يكونَ إلى الله تعالى سَائِراً.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «منهاج السنة» (٥/٤٢٨-٤٣١): «الناسُ في طلبِ

(١) تتآزَرَ: تتعاون ويُقَوِّي بعضها بعضاً.

العلم والدين طريقان مبتدعان، وطريق شرعي: هو النظر فيما جاء به الرسول، والاستدلال بأدلتِهِ، والعمل بموجبها، فلا بُدَّ من علم بما جاء به وعمل به، لا يكفي أحدهما.

وهذا الطريق متضمنٌ للأدلة العقلية والبراهين اليقينية، فإنَّ الرسولَ بيَّن بالبراهين العقلية ما يتوقَّف السمعُ عليه، والرسُلُ يَنبَوا للناسِ العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كلِّ مَثَلٍ.

وهذا هو الصراطُ المستقيمُ الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته.

وَأَمَّا الطَّرِيقَانِ الْمُبْتَدَعَانِ: فَأَحَدُهُمَا: طريقُ أهلِ الكلامِ البدعيِّ، فإن هذا فيه باطلٌ كثيرٌ، وكثيرٌ من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال، فيبقى هؤلاء في فسادِ علمٍ وفسادِ عملٍ، وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة.

والثاني: طريقُ أهلِ الرياضةِ والتَّصَوُّفِ والعبادةِ البدعية، وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة، فإن هؤلاء يقولون: إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلُّمٍ، وكثيرٌ من هؤلاء تكون عبادته مبتدعةً، بل مخالفةً لِمَا جاء به الرسول ﷺ، فيبقون في فسادٍ من جهة العمل، وفسادٍ من نقص العلم، حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول، وكثيراً ما يقع من هؤلاء وهؤلاء، وتقذح كلُّ طائفةٍ في الآخري، ويتحل كلُّ منهم أتباع الرسول، والرسول ليس ما جاء به موافقاً لِمَا قال هؤلاء ولا هؤلاء؛ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وما كان رسول الله ﷺ ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي، ولا على طريقة أهل البدع من أهل

العبادة والتَّصوُّف، بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة.

وكثيرٌ من أهلِ النظرِ يزعمون أنَّه بمجردِ النظرِ يحصل العلمُ، بلا عبادةٍ ولا دينٍ ولا تزكيةٍ للنفسِ، وكثيرٌ من أهلِ الإرادةِ يزعمون أنَّ طريقَ الرياضةِ بمجردِهِ تَحْصُلُ المعارفُ، بلا تعلُّمٍ ولا نظرٍ ولا تدبُّرٍ للقرآنِ والحديثِ، وكِلَا الفريقينِ غالطُ، بل لتزكيةِ النفسِ والعملِ بالعلمِ وتقوى الله تأثيرٌ عظيمٌ في حصولِ العلمِ، لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظرٍ وتدبُّرٍ وفهمٍ لما بعث الله به الرسول.

ولو تعبَّدَ الإنسانُ ما عسى أن يتعبَّدَ لم يعرف ما خصَّ الله به محمدًا ﷺ إن لم يعرف ذلك من جهته، وكذلك لو نظر واستدلَّ ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوبُ إلَّا بالتعلُّمِ من جهته، ولا يحصل التعلُّمُ المطابقُ النافعُ إلَّا مع العملِ به، وإلَّا فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى لأفضلِ الخلقِ الذي كان أركى الناسِ نفْسًا وأكملهم عقلًا قبل الوحي: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وعن حاجةِ السائرِ إلى الله تعالى إلى القوةِ العلمية والقوةِ العملية جميعًا يقول الإمامُ ابنُ القيم -رحمه الله تعالى-: «السائرُ إلى الله والدارِ الآخرة، بل كلُّ سائرٍ إلى مقصدٍ، لا يتمُّ سيرُهُ ولا يصلُ إلى مقصوده إلا بقوتين: قوةٌ علميةٌ، وقوةٌ عمليةٌ.

فبالقوةِ العلميةِ يبصرُ منازلَ الطريقِ ومواضعَ السلوكِ فيقصدُها سائرًا فيها، ويجتنبُ أسبابَ الهلاكِ ومواضعَ العطبِ وطُرُقَ المهالكِ المنحرفةِ عن الطريقِ الموصلِ فقوَّتُه العلميةُ كنورٍ عظيمٍ بيده، يمشي به في ليلةٍ مظلمةٍ شديدةِ الظُّلمةِ، فهو يُبصرُ

بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر.

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعائر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلةً بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعدَّ لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدّها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمّة، فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدةً مسرورةً جذلةً، وتلقّتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين.

فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبائها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدّمت فإلى أحبائها مصيرها وإن وقفت في

طريقها أدركها أعداؤها، فإنهم وراءها في الطلب.

ولابد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة^(١) فلتختر أيها شاءت، وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحُبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفرادُه في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين، فآلم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟

وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهتفون بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿[يس: ٢٦-٢٧].

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها، فكلما أدامن على السير وواظب عليه غدواً ورواحاً وسحراً قُرب من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همّة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته أنساً، وكثافته لطافةً، ودرنه طهارةً^(٢).

فاستكمال العبد لقوته العلمية والعملية هما جناحاً سيره إلى الدار الآخرة مهما تخلف منها واحد فقد تخلف سيره إلى الدار الآخرة بحسبه، والمعصوم من عصمه الله، وما كل الناس بمستكمل ما أحب أن يستكمل، لذلك انقسم الناس إلى سابق

(١) الأقسام الثلاثة هي: التقدّم، والوقوف، والرجوع.

(٢) «طريق المهجرتين» لابن القيم (ص ١٧١).

مُقَرَّبٍ، ومُقْتَصِدٍ فِي الْخَيْرَاتِ، وَظَالِمٍ لِنَفْسِهِ.

وَقَدْ قَسَمَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ النَّاسُ مِنْ حَيْثُ الْقُوَّةُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ تَقْسِيمًا مُطَابِقًا فَقَالَ: «مَنْ النَّاسُ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْقُوَّةُ الْعِلْمِيَّةُ الْكَاشِفَةُ عَنِ الطَّرِيقِ وَمَنَازِلِهَا وَأَعْلَامُهَا وَعَوَارِضُهَا وَمَعَاثِرُهَا، وَتَكُونُ هَذِهِ الْقُوَّةُ أَغْلَبَ الْقَوَتَيْنِ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ ضَعِيفًا فِي الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ يُبْصِرُ الْحَقَائِقَ وَلَا يَعْمَلُ بِمَوْجِبِهَا، وَيَرَى الْمُتَالِفَ وَالْمَخَافَ وَالْمُعَاطَبَ وَلَا يَتَوَقَّاهَا، فَهُوَ فَاقِيَةٌ مَا لَمْ يَحْضُرِ الْعَمَلُ، فَإِذَا حَاضَرَ الْعَمَلُ شَارَكَ الْجَهَّالَ فِي التَّخَلُّفِ، وَفَارَقَهُمْ فِي الْعِلْمِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَكْثَرِ النَّفُوسِ الْمَشْتَغَلَةِ بِالْعِلْمِ، وَالْمَعْصُومُ مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ لَهُ الْقُوَّةُ الْعَمَلِيَّةُ الْإِرَادِيَّةُ، وَتَكُونُ أَغْلَبَ الْقَوَتَيْنِ عَلَيْهِ، وَتَقْتَضِي هَذِهِ الْقُوَّةُ السَّيْرَ وَالسَّلُوكَ وَالزَّهْدَ فِي الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةَ فِي الْآخِرَةِ وَالْحِدَّةَ وَالتَّشْمِيرَ فِي الْعَمَلِ، وَيَكُونُ أَعْمَى الْبَصَرِ عِنْدَ وَرُودِ الشَّبَهَاتِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْإِنْحِرَافَاتِ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ كَمَا كَانَ الْأَوَّلُ ضَعِيفَ الْعَقْلِ عِنْدَ وَرُودِ الشَّهَوَاتِ، فَدَاءُ هَذَا مِنْ جَهْلِهِ، وَدَاءُ الْأَوَّلِ مِنْ فُسَادِ إِرَادَتِهِ وَضَعْفِ عَقْلِهِ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ أَرْبَابِ الْفَقْرِ وَالتَّصَوُّفِ السَّالِكِينَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِ الْعِلْمِ، بَلْ عَلَى طَرِيقِ الذُّوقِ وَالْوَجْدِ وَالْعَادَةِ، يُرَى أَحَدُهُمْ أَعْمَى عَنْ مَطْلُوبِهِ لَا يَدْرِي مَنْ يَعْبُدُ وَلَا بِمَاذَا يَعْبُدُهُ، فَتَارَةً يَعْبُدُهُ بِذَوْقِهِ وَوَجْدِهِ، وَتَارَةً يَعْبُدُهُ بِعَادَةِ قَوْمِهِ وَأَصْحَابِهِ مِنْ لَبْسٍ مَعِيْنٍ أَوْ كَشْفِ رَأْسٍ أَوْ حَلْقِ لَحْيَةٍ وَنَحْوِهَا، وَتَارَةً يَعْبُدُهُ بِالْأَوْضَاعِ الَّتِي وَضَعَهَا بَعْضُ الْمُتَحَذِّقِينَ وَلَيْسَ لَهَا أَصْلٌ فِي الدِّينِ، وَتَارَةً يَعْبُدُهُ بِمَا تَحِبُّهُ نَفْسُهُ وَتَهْوَاهُ كَانَتْ مَا كَانَ، وَهَذَا طَرِيقُ وَمَتَاهَاتٌ لَا يَحْصِيهَا إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ.

فهؤلاء كلهم عَمُونَ عن ربهم، وعن شريعته ودينه، لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد ديناً سواه، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرّف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبتة من طريقها، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له.

ومن كانت له هاتان القوتان^(١)، استقام له سيره إلى الله، ورجي له النفوذ، وقوي على ردّ القواطع والموانع بحول الله وقوته، فإن القواطع كثيرة شأئها شديداً، لا يخلص من حائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ولو شاء الله لأزالتها وذهب بها، ولكن الله تعالى يفعل ما يريد.

والوقت - كما قيل -: سيف، فإن قطعتة وإلا قطعك، فإذا كان السير ضعيفاً والهمة ضعيفةً، والعلم بالطريق ضعيفاً، والقواطع الخارجة والداخلية كثيرة شديدة فإنه جهد البلاء ودرك الشقاء وشأته الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمته منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع، والله وليّ التوفيق^(٢).
ولكن الأمر لو مرّ كفافاً على صاحب العلم، لا عليه ولا له لكان هيئاً، ولكنه محكوم بقاعدة من القواعد الهامة في دين الإسلام العظيم.

* قاعدة:

كلما كانت الرتبة في العلم عالية، كانت المؤاخذه على فقدان العمل شديدة وصارمة.

(١) أي: القوة العلمية والقوة العملية.

(٢) «طريق المهجرتين» (ص ١٧٢).

وهذه القاعدة من القواعد العظيمة في الدين، وهي تلزم كل من علم أن يعمل ولا يتوانى في العمل، وتقضي بأن الذين يفصلون العلم عن العمل ليسوا على شيء، وإنما أمرهم إلى الله، هو يفصل بينهم بحكمه، وهو العليم الحكيم.

والأدلة على هذه القاعدة من الكتاب والسنة كثيرة، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذْنَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿[الإسراء: ٧٤-٧٥]. قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ﴾؛ أي: على الحق وعصمتنا من موافقتهم.

﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: تميل، ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾، أي: ركونًا قليلًا. قيل: ظاهر الخطاب للنبي ﷺ وباطنه إخبار عن ثقيف، والمعنى: وإن كادوا ليركبنوك، أي: كادوا يخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازًا واتساعًا؛ كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوي.

وقيل: ما كان منه هم بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيري.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصومًا، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه.

وقوله: ﴿إِذَا لَأَذْنَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾، أي: لو ركنت لأذنفك مثلي عذاب الحياة في الدنيا، ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ قاله ابن عباس.

ومجاهدٌ وغيرهما، وهذا غايةُ الوعيد، وكلّما كانت أعلى كان العذابُ عند المخالفةِ أعظمَ، قال الله تعالى: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وضِعْفُ الشيءِ مثلهُ مرّتين، وقد يكونُ الضّعْفُ النصيبَ؛ كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]^(١).

وقال النَّسْفِيُّ -عفا الله عنه-: «قوله تعالى: ﴿لَأَذِقَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾، لأَذِقَنَّكَ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَعَذَابَ الْقَبْرِ مضاعفينِ لعظيمِ ذنبك بِشَرَفِ منزلتك ونبوتك، كما قال: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وفي ذكر الكيدِ ودّةٍ وتقليلِها مع إتباعِها الوعيدَ الشديدَ بالعذابِ المضاعفِ في الدارين دليلٌ على أن القبيحَ يعظمُ قُبْحُهُ بمقدارِ عَظَمِ شأنِ فاعلهِ»^(٢).

وقال الشنقيطي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذِقَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا»، بين -جلّ وعلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ تشبيّهَ لنبيه ﷺ، وعصمته له من الركونِ إلى الكفارِ، وأنّه لو رَكَنَ إِلَيْهِمْ لَأَذَاقَهُ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ؛ أي مثلي

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠ / ٣٠٥).

(٢) «تفسير النسفي» (٢ / ٣٢٣).

والنسفيُّ هو عبد الله بن أحمد بن محمود، والنسفيُّ نسبةٌ إلى بلدةٍ من بلادِ ما وراء النهر، كان حنفيًّا متعصبًا، واختصر تفسيره المسمّى «بمدارك التنزيل وحقائق التأويل» من تفسير البيضاوي والزمخشري، والنسفيُّ من غلاة الأشعرية المؤولة، أوّل جميع الصفات، وكان متعصبًا في التأويل.

عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة، وبهذا جزم القرطبي في تفسيره.
وقال بعضهم: المراد بضعف عذاب الممات: العذاب المضاعف في القبر، والمراد بضعف الحياة: العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث، وبهذا جزم الزمخشري وغيره، والآية تشمل الجميع.

وهذا الذي ذكره هنا من شدة الجزاء لنيته - لو خالف - بينه في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وهذا الذي دلّت عليه هذه الآية من أنه إذا كانت الدرجة أعلى كان الجزاء عند المخالفة أعظم، بينه في موضع آخر، كقوله: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَلْحَشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

وقد أجاد من قال:

وَكَبَائِرُ الرَّجُلِ الصَّغِيرِ صَغَائِرُ وَصَغَائِرُ الرَّجُلِ الْكَبِيرِ كَبَائِرُ

وهذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا محمد ﷺ من مقارنة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون؛ لأن «لولا» حرف امتناع لوجود، فمقاربة الركون منعها «لولا» الامتناعية لوجود التشبّه من الله - جلّ وعلا - لأكرم خلقه ﷺ، فصَحَّ يقيناً انتفاء مقارنة الركون فضلاً عن الركون نفسه.

وهذه الآية تبين أنه لم يُقَارَبِ الركون إليهم ألبتة؛ لأنّ قوله: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي: قاربت تركن إليهم، هو عين الممنوع بـ «لولا»

الامتناعية كما ترى، ومعنى: «تَرَكْنُ إِلَيْهِمْ»: تميلُ إليهم»^(١).

٢- وقوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى وإعطاء نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهنَّ تحت رسول الله ﷺ، فناسب أن يخبرهنَّ بحكمهنَّ وتخصيصهنَّ دون سائر النساء بأنَّ مَنْ يَأْتِ مِنْهُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وهو النُّشُوزُ وسُوءُ الْخُلُقِ، وعلى كُلِّ تقديرٍ فهو شَرُطٌ، والشَّرُطُ لا يقتضي الوقوع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وكقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلما كانت محلتهنَّ رفيعةً ناسب أن يجعل الذنب لو وقع مِنْهُنَّ مُعْلَظًا؛ صيانةً لجنابهنَّ وحجابهنَّ الرفيع ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وقال مالكٌ عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، قال: في الدنيا والآخرة، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلاً هيناً، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: تُطع الله ورسوله وتستجيب ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، أي: في الجنة، فإنَّهنَّ في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق في «الوسيلة»، التي

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٥٦٤).

هي أقرب منازل الجنة إلى العرش»^(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: لما اختار نساء النبي ﷺ رسول الله ﷺ شكرهنَّ الله على ذلك، فقال تَكْرَمَةً لَهُنَّ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وَيَبَيِّنُ حَكْمَهُنَّ عَنْ غَيْرِهِنَّ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وجعل ثواب طاعتهنَّ وعقاب معصيتهنَّ أَكْثَرَ مِمَّا لغيرهنَّ فقال: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، فأخبر تعالى أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِفَاحِشَةٍ -والله عاصمٌ رسولهُ ﷺ من ذلك- يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ؛ لشرف منزلتهنَّ وفضل درجاتهنَّ، وتقديهنَّ على سائر النساء أجمع.

وكذلك بَيَّنَّتِ الشريعةُ في غير ما موضع أَنَّهُ كَلَّمَا تَضَاعَفَتِ الْحُرُمَاتُ فَهَتَكَتِ تَضَاعَفَتِ الْعُقُوبَاتُ؛ ولذلك ضُوعِفَ حَدُّ الْحُرِّ عَلَى الْعَبْدِ وَالثَّيِّبِ عَلَى الْبَكْرِ»^(٢).

وقال النسفي -عفا الله عنه-: «قوله: ضِعْفَيْنِ، ضِعْفَي عَذَابٍ غَيْرِهِنَّ مِنْ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّ مَا قُبِحَ مِنْ سَائِرِ النِّسَاءِ كَانَ أَقْبَحَ مِنْهُنَّ، فزِيَادَةُ قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ تَتَّبِعُ زِيَادَةَ الْفَضْلِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلُ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِذَا كَانَ الذَّمُّ لِلْعَاصِي الْعَالِمِ أَشَدَّ مِنَ الْعَاصِي الْجَاهِلِ؛ لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ مِنَ الْعَالِمِ أَقْبَحُ»^(٣).

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٤٨١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٦٩).

(٣) «تفسير النسفي» (٣/ ٣٠١).

٣- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

قال الشنقيطي رحمه الله: «قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأنس بن مالك رضي الله عنه، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، والزهرى، والسدي، والضحاك، والحسن، وقتادة، وابن زيد، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني: الشرك». وهذه الآية الكريمة تضمنت أمرين:

الأول: أَنَّ مَنْ جَاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالسَّيِّئَةِ كَالشَّرِكِ يُكَبَّ وَجْهُهُ فِي النَّارِ.

والثاني: أَنَّ السَّيِّئَةَ تُجْزَى بِمِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ، وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأول منهما: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]، وكقوله تعالى في الثاني منهما: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦].

وإذا علمت أَنَّ السيئات لا تُضَاعَفُ، فاعلم أَنَّ السيئة قد تعظم فيعظم جزاؤها بسبب حرمة المكان، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، أو حرمة الزمان، كقوله تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقد دلت آيات من كتاب الله أَنَّ العذاب يعظم بسبب عظم الإنسان المخالف،

كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴿[الإسراء: ٧٤-٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿[الحاقة: ٤٤-٤٧]، وكقوله تعالى في أزواجه ﷺ: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

ومضاعفة السيئة المشار إليها في هاتين الآيتين، إن كانت بسبب عظم الذنب، حتى صار في عظمه كذنين، فلا إشكال، وإن كانت مضاعفة جزاء السيئة كانت هاتان الآيتان مُحَصِّصَتَيْنِ للآيات المصروفة؛ لأن السيئة لا تُجزئ إلا بمثلها، والجميع محتمل، والعلم عند الله تعالى»^(١).

٤ - وقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾، هذا استفهام توبيخ، والمراد في قول أهل التأويل: علماء اليهود. قال ابن عباس: كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رِضَاعٌ من المسلمين: اثبت على الذي أنت عليه وما يأمر بك به هذا الرجل - يريدون محمداً ﷺ - فإن أمره حق؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه.

وعن ابن عباس أيضاً: كان الأحرار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد ﷺ.

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٤٤٥).

وقال ابن جريج: كان الأخبارُ يحضُّون على طاعة الله، وكانوا هم يُواقعون المعاصي.

وقالت فرقة: كانوا يحضُّون على الصدقة ويخلون، والمعنى متقارب.

وقد دلَّت ألفاظُ الآية على أنَّ عقوبة مَنْ كان عالمًا بالمعروف والمنكر ووجوب القيام بوظيفة كلِّ واحدٍ منهما أشدُّ ممَّن لم يعلمه؛ وإنما ذلك، لأنَّه كالمستهين بحرمة الله تعالى، ومستخفُّ بأحكامه، وهو ممَّن لا ينتفع بعلمه.

واعلم وفَّقَكَ اللهُ تعالى أنَّ التوبيخَ في الآية بسبب ترك فعل البرِّ لا بسبب الأمر بالبرِّ، ولهذا ذمَّ اللهُ تعالى في كتابه قومًا كانوا يأْمرون بأعمال البرِّ ولا يعملون بها، ووبَّخهم به توبيخًا يُتلى على طولِ الدهرِ إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وقال منصورُ الفقيه فأحسن:

إِنَّ قَوْمًا يَأْمُرُونََنَا بِالَّذِي لَا يَفْعَلُونََا
لَمَجَانِينَ وَإِنْ هُمْ لَمْ يَكُونُوا يُصْرَعُونََا

وقال أبو العتاهية:

وَصَفَتِ التَّقَى حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو تُقَى
وَرِيحُ الْخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال أبو عمرو بن مَظَرٍ: حضرتُ مجلسَ أبي عثمانَ الحِيريِّ الزاهدِ فخرجَ وقَعَدَ على موضعه الذي كان يقعدُ عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوتُه، فناداه رجلٌ كان يُعرفُ بأبي العباس: ترى أن تقولَ في سكوتك شيئًا؟ فأنشأ يقول:

وَعَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى
طَبِيبٌ يُدَاوِي وَالطَّبِيبُ مَرِيضُ

قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج»^(١).

قلت: والتوبيخ في الآية - كما مر - بسبب ترك البر لا بسبب الأمر بالبر، وعليه فينبغي أن نفصل بين أمرين: بين فعل المعروف، والأمر بالمعروف، وكلاهما مكلف به العبد، وكلاهما مطلوب من العبد، وكذلك ينبغي الفصل بين النهي عن المنكر، وهو واجب في ذاته، وبين الانتهاء عن المنكر، وهو واجب في ذاته.

* قاعدة:

الصَّحِيحُ أَنَّ الْعَالِمَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ ارْتَكَبَهُ، فَكُلُّ مَنْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَفِعْلُهُ وَاجِبٌ لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بترك الآخر على أَصَحِّ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جَمَاعُ الْخَيْرِ، أَنْ تَنْسُوا أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَأْتُرُونَ بِمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ، وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ تَتْلُونَ الْكِتَابَ وَتَعْلَمُونَ مَا فِيهِ عَلَى مَنْ قَصَرَ فِي أَوْامِرِ اللَّهِ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِأَنْفُسِكُمْ؟ فَتَنْبَهُوا مِنْ رَقَدَتِكُمْ، وَتَبْصُرُوا مِنْ عَمَايَتِكُمْ.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبهم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٢).

مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف، وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فإنه لا حجة لهم فيها، والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه.

قال مالك: عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر، قال مالك: وصدق، من ذا الذي ليس فيه شيء؟!

قلت -أي: ابن كثير رحمته الله-: لكنّه والحالة هذه مذمومٌ على ترك الطاعة، وفعل المعصية؛ لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم^(١).

وقال السعدي رحمته الله: «وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنها دلّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين والنقص الكامل أن يتركهما، وأمّا قيامه بأحدهما دون الآخر فليس في رتبة

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٨٥).

الأول وهو دون الأخير، وأيضاً، فإنَّ النفوسَ مجبولةٌ على عدم الانقياد لمن يخالفُ قوله فعله، فاقتدائهم بالأفعالِ أبلغُ من اقتدائهم بالأقوالِ المجردةِ»^(١).

٥ - وَمَا رَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَتَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُم عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ»^(٢).
رواه البخاري ومسلم.

وفي روايةٍ للبخاري^(٣) عن أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطْرَحُ فِي النَّارِ فَيُطْحَنُ فِيهَا كَمَا يُطْحَنُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ، أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي كُنْتُ أَمُرُّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَفْعَلُهُ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَفْعَلُهُ».

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: فَيُطْحَنُ فِيهَا كَطَحْنِ الْحِمَارِ» في رواية الكُشْمِينِي: «كَمَا يُطْحَنُ الْحِمَارُ» كذا رأيتُ في نسخةٍ معتمدةٍ، «فَيُطْحَنُ» بضمٍّ أوله على البناء للمجهول، وفي أخرى بفتح أوله، وهو أوجهٌ، ففي رواية سفيان وأبي معاوية «فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ» وفي رواية عاصم: «يَسْتَدِيرُ فِيهَا كَمَا يَسْتَدِيرُ الْحِمَارُ»، وكذا في رواية أبي معاوية.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص ٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) برقم (٦٦٨٥).

والأقتاب: جمع قتب بكسر القاف، وسكون المثناة بعدها موحدّة هي الأمعاء،
واندلاقها: خروجها بسرعة، يُقال: اندلق السيف من غمده، إذا خرج من غير أن
يسلّه أحد.

قوله: «فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ»، أي: يجتمعون حوله، يقال: أطاف به القوم إذا
حلّقوا حوله حلقةً، وإن لم يدوروا، وطافوا إذا داروا حوله، وبهذا التقدير يظهر
خطأ من قال: إنها بمعنى واحد^(١).

وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/٥٣): «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ»؛ أي:
الذي يُحَالِفُ علمه عمله، الاندلاق: خروج الشيء من مكانه بسرعة، والأقتاب - جمع
قتب بكسر القاف -: الأمعاء، «كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ»؛ أي: الطاحون.

فانظر يا أخي إلى حال من قال ولم يفعل كيف تَنَصَّبُ مصاريئه من جوفه،
وتخرج من دبره، ويدور بها دوران الحمار بالطاحون، والناس تنظر إليه وتتعجب من
هيئته، نسأل الله السلامة.

٦- وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَسْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ
لَهَا» رواه مسلم (٢٧٢٢).

٧- وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فَيَمَّ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فَيَمَّ عَمَلٍ فِيهِ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ

(١) «فتح الباري» (١٣/٥٦).

أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟». رواه الترمذي (٢٤١٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/٢٩٠).

تزولُ قدما عبداً، أي: من موقفه للحساب إلى الجنة أو النار.

٨- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ» رواه الترمذي (٢٤١٦)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/٢٨٩)، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٩٤٦).

٩- وعن جندب بن عبد الله الأزدي رضي الله عنه، صاحب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسِي نَفْسَهُ كَمَثَلِ السَّرَّاجِ، يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ» رواه الطبراني في «الكبير» (١٦٨١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/١٨٥): «رجالهم موثقون»، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/١٤٨): «إسناده حسن إن شاء الله». وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/٥٦).

١٠- وعن أبي بركة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسِي نَفْسَهُ، مَثَلُ الْفَتِيلَةِ، تُضِيءُ عَلَى النَّاسِ، وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا» رواه البزار، كذا قال المنذري رحمته الله في «الترغيب والترهيب» (١/١٤٧)، وقال الألباني: «ولم ينسبه الهيثمي ثم السيوطي إلا للطبراني في «الكبير» وضعفه ينجبر بالذي قبله» كذا قال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/٥٦).

الفتيلة: الذبالة التي تغمس في الزيت لتضيء.

١١- وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَرَزْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِبِاقِوَامٍ تُقَرِّضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ» قال الألباني: هذا الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٥-موارد الظمآن) وابن أبي الدنيا، والبيهقي، وأحمد (٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩).

وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٣).

١٢- وفي حديث المنام الطويل الذي رواه سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟»، قَالَ: فَيَقْصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيُثَلِّغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهَّدُهُ الْحَجَرُ هَاهُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرُ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصْبَحَ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِ مَرَّةَ الْأَوَّلَى، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ، انْطَلِقْ...»

قَالَ: قَالَا لِي: أَمَّا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ؛ أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثَلِّغُ رَأْسَهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرُفُّهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ...»^(١)، متفق عليه، واللفظ للبخاري، وهو عند مسلم مختصراً.

قال الحافظ: «قوله: «آتِيَانِ»: في آخر الحديث أنهما جبريل وميكائيل.

(١) رواه البخاري (٦٦٤٠)، ومسلم (٢٢٧٥).

قوله: «وَأَمَّهُمَا ابْتَعَثَانِي»: أرسلاني، كذا قال في «الصحاح»: بعثه وابتعثه: أرسله، يقال: ابتعثه إذا أثاره وأذهبه، وقال ابن هبيرة: معنى ابتعثاني: أيقظاني، ويحتمل أن يكون رأى في المنام أنهما أيقظاه فرأى ما رأى في المنام، ووصفه بعد أن أفاق على أن منامه كاليقظة، لكن لما رأى مثلاً كشفه التعبير دلّ على أنه كان مناماً.

قوله: «وَأَنَا آتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ» في رواية جرير: «مُسْتَلْقٍ عَلَى قَفَاهُ».

قوله: «يَهْوِي»: يسقط.

«وَيَتَلَعُّ رَأْسَهُ»: يَشْدُخُهُ، وَالشَّدَخُ: كسر الشيء الأجوف.

«فَيَتَدَهَّدُهُ»: يتدحرج.

«هَاهُنَا»: أي: إلى جهة الضارب.

«فَيَتَّبِعُ»: أي الرجل القائم.

«فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ»: أي إلى الذي شَدَخَ رَأْسَهُ.

قوله: «فَيَرْفُضُهُ»: يتركه، قال ابن هبيرة: رَفَضَ الْقُرْآنَ بعد حفظه جناية عظيمة

لأنه يؤهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رَفَضَ أَشْرَفَ الأشياء وهو القرآن، عُوقِبَ فِي أَشْرَفِ أَعْضَائِهِ وهو الرأس.

قوله: «وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ»: هذا أوضح من رواية جرير بن حازم

بلفظ: «عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَتَنَّمَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ»، فَإِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّهُ يُعَذِّبُ عَلَى تَرْكِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، بخلاف رواية عوفٍ فإنه على تركه الصلاة المكتوبة،

ويُحتمل أن يكون التعذيبُ على مجموعِ الأمرين: تركِ القراءة، وتركِ العملِ^(١).

١٣ - وعن لقمانَ بن عامرٍ قال: كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنَّمَا أَخْشَى مِنْ رَبِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَدْعُونِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيَقُولَ لِي: يَا عُيُوبُ، فَأَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، فَيَقُولُ: مَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟» قال المنذري: «رواه البيهقي». وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٥)، ورواه ابن عبد البر في الجامع (٢/ ٢، ٣) والدارمي (١/ ٩٤) ولفظه فيه: قال أبو الدرداء: «مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي أَنْ يُقَالَ لِي: مَا عَمِلْتَ؟ وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ يُقَالَ لِي: مَاذَا عَمِلْتَ؟».

قلتُ: ما مرَّ من آياتِ الكتابِ العزيزِ الصريحةِ، وسنةِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحةِ، قاضٍ بصدقِ القاعدةِ التي ذكرتُ قبلَ سَوِّقِ الأدلَّةِ، وهي: أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الرِّتْبَةُ فِي الْعِلْمِ عَالِيَةً، كَانَتِ الْمُواخَذَةُ عَلَى فَقْدَانِ الْعَمَلِ شَدِيدَةً وَصَارِمَةً.

لذلك كان العملُ بالعلمِ أمرًا لازمًا لكلِّ مَنْ عِلِمَ، حتَّى يخرجَ من دائرةِ الوعيدِ لمن عِلِمَ ولم يعمل، وتأتي الوصيةُ بذلك من الأئمةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كي تحثَّ على بذلِ المجهودِ، واستفراغِ الوسعِ في العملِ على مقتضى العلمِ الذي مَنَّ اللَّهُ بِهِ وَأَعْطَاهُ.

قال الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثُمَّ إِنِّي مَوْصِيكَ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي طَلَبِهِ، وَإِجْهَادِ النَّفْسِ عَلَى الْعَمَلِ بِمَوْجِبِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ شَجَرَةٌ، وَالْعَمَلُ ثَمَرَةٌ، وَلَيْسَ يُعَدُّ عَالِمًا مَنْ لَمْ يَكُنْ بَعْلِمِهِ عَامِلًا».

وقيل: العلمُ والدُّ، والعملُ مولودُ، والعلمُ مع العملِ، والروايةُ مع الدرايةِ، فلا تَأَنَسَ بِالْعَمَلِ مَا دُمْتَ مُسْتَوْحِشًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا تَأَنَسَ بِالْعِلْمِ مَا كُنْتَ مُقَصِّرًا

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٤٥٧).

في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلّ نصيبك منهما.

وما شيءٌ أضعفَ من عالمٍ تركَ النَّاسَ علمَهُ لفسادِ طريقتِهِ وجاهلٍ أخذَ النَّاسَ بجهله لنظرهم إلى عبادته.

والقليلُ من هذا مع القليلِ من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضلَ الله بالرحمة، وتَمَّ على عبده النعمة، فأما المدافعةُ والإهمالُ، وحُبُّ الهوينى، والاسترسالُ، وإيثَارُ الحَفْضِ والدَّعةِ، والميلُ مع الراحةِ والسَّعةِ، فإنَّ خواتمَ هذه الخِصالِ ذميمةٌ وعُقباهَا كريهةٌ وخيمةٌ.

والعلمُ يُرادُ للعملِ كما العملُ يَراوُ للنَّجاةِ، فإذا كان العملُ قاصراً عن العلمِ كان العلمُ كلاً على العالمِ، ونعوذُ بالله من علمٍ عادَ كلاً، وأورثَ ذُلًّا، وصار في رقبة صاحبه غُلًّا.

قال بعضُ الحكماء: العلمُ خادمُ العملِ، والعملُ غايةُ العلمِ، فلولا العملُ لم يُطلبَ علمٌ، ولولا العلمُ لم يُطلبَ عملٌ، ولأنَّ أدعَ الحقِّ جهلاً به، أحبُّ إليَّ من أن أدعَهُ زُهدًا فيه.

قال الشيخُ: وهل أدركَ مَنْ أدركَ من السَّلفِ الماضين الدَّرَجَاتِ العُلاَ إلا بإخلاصِ المعتقدِ، والعملِ الصالحِ، والزُّهدِ الغالبِ في كلِّ ما راق من الدنيا؟ وهل وصلَ الحكماءُ إلى السَّعادةِ العظمى إلا بالتَّشْمِيرِ في السَّعي والرضا بالميسورِ وبَدَلِ ما فَضَّلَ عن الحاجةِ للسَّائلِ والمحرومِ؟

وهل جَامِعُ كُتُبِ العلمِ إلا كجامعِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ؟ وهل المنهومُ بها إلا كالخريصِ الجشعِ عليهما؟ وهل المُغرَمُ بحُبِّها إلا ككائزهما؟

وكما لا تنفعُ الأموالُ إلا بإنفاقِها، كذلك لا تنفعُ العلومُ إلا لمن عَمِلَ بها وراعَى واجباتِها، فلينظرَ امرؤٌ لنفسِهِ، وليغتنمِ وقتهِ فإنَّ الثَّوَاءَ قليلٌ، والرحيلُ قريبٌ، والطريقُ مخوفٌ، والاعتِرَارُ غَالِبٌ، والخطَرُ عَظِيمٌ، والنَّاقِدَ بصيرٌ، واللهُ تعالى بالمرصادِ، وإليه المرجعُ والمعادُ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] (١).

فالمُعَوَّلُ على العملِ، وإنما هو المرادُ من العلمِ، وهل يُرادُ من العلمِ إلا العملُ

به؟

قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فِي «صيد الخاطر» (ص ٣٧): «تَأَمَّلْتُ المرادَ من الخلقِ؛ فإذا هو الذُّلُّ واعتقَادُ التقصيرِ والعجزِ.

وَمَثَّلْتُ العلماءَ والزُّهَّادَ العاملينَ صِنْفَيْنِ: فَأَقَمْتُ فِي صَفِّ العلماءِ: مالِكًا وسفيانَ وأبا حنيفةَ والشافعيَّ وأحمدَ، وَفِي صَفِّ العَبَادِ مالِكُ بنُ دينارٍ، ورابعةٌ، ومَعْرُوفًا الكَرخيَّ، وبشرَ بنَ الحارثِ.

فكَلِمًا جَدَّ العِبَادُ فِي العِبَادَةِ، وصَاحَ بِهِمْ لِسَانُ الحَالِ: عِبَادَتُكُمْ لَا يَتَعَدَاكُمْ نَفْعُهَا وَإِنَّمَا يَتَعَدَّى نَفْعُ العِلْمَاءِ، وَهُمْ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وَخُلَفَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ (٢)، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ الْمُعَوَّلُ، وَلَهُمُ الْفَضْلُ إِذَا أَطْرَقُوا وَانكسروا وَعَلِمُوا صِدْقَ تِلْكَ الحَالِ، وَجَاءَ مَالِكُ بنُ دينارٍ إِلَى الْحَسَنِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، وَيَقُولُ: الْحَسَنُ أَسْتَاذُنَا.

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص ١٤).

(٢) ليس الإنسانُ خليفةً لله فِي الْأَرْضِ، وَالْخَلِيفَةُ يُخْلَفُ عَنْ غَائِبٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ».

وإذا رأى العلماء أنَّ لهم بالعلم فضلاً، صاحَ لسانُ الحالِ بالعلماءِ: وهل المرادُ من العلمِ إلا العملُ؟ وقال أحمدُ بن حنبلٍ: وهل يرادُ بالعلمِ إلا ما وَصَلَ إليه معروفٌ؟

وصحَّ عن سفيانَ الثوريِّ أنَّه قال: «وَدِدْتُ أَنْ يَدِيَ قُطِعَتْ وَلَمْ أَكْتُبِ الْحَدِيثَ»^(١).

وقالت أُمُّ الدرداءَ لرجلٍ: هل عملتَ بما علمتَ؟ قال: لا، قالت: فَلِمَ تستكثرُ من حُجَجِ الله عليك؟! وقال أبو الدرداءَ: وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ وَلَمْ يَعْمَلْ مَرَّةً، وَيْلٌ لِمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ سَبْعِينَ مَرَّةً.

وقال الفضيلُ: يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْبًا، قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ. فما يبلغ من الكلِّ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وجاء سفيانُ إلى رَابِعَةٍ^(٢) فجلس بين يديها ينتفعُ بكلامِها، فدَلَّ العلماءُ العلمُ على أنَّ المقصودَ منه العملُ به، وأنَّه آلهُ فانكسروا واعترفوا بالتقصيرِ. فَحَصَلَ الكلُّ على الاعترافِ والدُّلِّ، فاستخرَجَتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العبوديةِ باعترافهم، فذلك هو المقصودُ من التكليفِ «اهـ».

قلتُ: وعلاقةُ العلمِ بالعملِ كعلاقةِ الروحِ بالجسدِ، علاقةٌ شفيفةٌ لا تُحَدُّها

(١) يقوله خشية طلب الشهرة به والعلو، وإلا فعلم الحديث من أشرف العلوم.
(٢) ترجمتها في: «وفيات الأعيان» (٣/ ٢١٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤١)، وخبر سفيان في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤١-٢٤٣).

معالم ظاهرة تدركها الحواس ويقنع بها الحس، اللهم إلا في ثمرتها، فإن العلم إن عُمِلَ به زكاً وأثمر، والعمل إذا كان على مقتضى العلم كان مباركاً ذا أثر.

ومن فاتته العلم كان تائهاً في ظلمات حيرة لا تخلص منها، ومن حصل له العلم ولم يحصل له العمل كان أشد حيرة وأمعن في ظلمات ليل لا صبح له ولا معدى عنه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وكل من فاتته العلم تحبط، فإن حصل له، وفاته العمل به كان أشد تحبطاً»^(١).

ولا نجاة من هذا كله - بفضل الله ورحمته - إلا بإحكام العمل على مقتضى العلم، وإحكام العلم على نهج الوحيين الشريفين: الكتاب والسنة. وقد كان السلف رحمهم الله يؤصون طلبه الحديث بالتميز في أمورهم كلها؛ باستعمال آثار النبي ﷺ، وكانوا يستعينون على حفظ الحديث بالعمل به.

قال الخطيب رحمه الله في الجامع (١/ ١٤٢): «ينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أمورهِ عن طرائق القوم؛ باستعمال آثار النبي ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن على نفسه، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]».

عن أبي أيوب سليمان بن إسحاق الجلاب: قال: قال لي إبراهيم الحربي: ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من آداب النبي ﷺ أن يتمسك به.

وعن الحسن قال: كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يرى ذلك في تحشيره

(١) «تلييس إبليس» لابن الجوزي (ص ٢٧٤).

وهديه ولسانه وبصره ويده.

وعن ابن عيينة قال: كان الشاب إذا وقع في الحديث احتسبه أهله.

قال أبو بكر - هو الخطيب البغدادي رحمه الله -: يعني أنه كان يجتهد في العبادة اجتهادًا يقتطعه عن أهله، فيحتسبونه عند ذلك.

وعن أبي عصمة عاصم بن عصام البيهقي قال: بُت ليلةً عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظَرَ إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له وردٌ من الليل؟!

وعن أبي عمرو بن حمدان قال: سمعتُ أبي يقول: كنتُ في مجلسِ أبي عبد الله المروزي، فحضرت صلاةَ الظهر، فأذن أبو عبد الله، فخرجتُ من المسجد، فقال: يا أبا جعفرٍ إلى أين؟! قلتُ: أتطهّر للصلاة، قال: كان ظني بك غير هذا، يدخلُ عليك وقتُ الصلاة وأنت على غير طهارة؟!

وعن قاسم بن إسماعيل بن عليّ قال: كنّا ببابِ بشر بن الحارث، فخرج إلينا، فقلنا: يا أبا نصرٍ حدّثنا، فقال: أتودّونَ زكاةَ الحديث؟ قال: قلتُ له: يا أبا نصرٍ، وللحديثِ زكاةٌ؟! قال: نعم، إذا سمعتم الحديث، فما كان في ذلك من عملٍ أو صلاةٍ أو تسبيحٍ استعملتموه.

وعن المروزي قال: قال لي أحمد: ما كتبتُ حديثاً عن النبي ﷺ إلا وقد عملتُ به، حتى مرَّ بي الحديثُ أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبةً ديناراً، فأعطيتُ الحجام ديناراً حين احتجمتُ.

وهذا الذي قال الإمام أحمد وشرح، وبين وصنع، هو الفهم المستقيم لروح

الدين وجوهر الشريعة؛ لأنَّ الشرع إنما طَلَبَ تَعَلَّمَ العلمِ وحَضَّ عليه لأجل كونه وسيلةً للتعبُّدِ به لله تعالى.

قال الشاطبي - رحمه الله تعالى -: «كُلُّ علمٍ شرعيٍّ فَطَلَبُ الشارعِ له إنما يكون من حيث هو وسيلةٌ إلى التعبُّدِ به لله تعالى، لا من جهةٍ أخرى، فإنَّ ظَهَرَ فيه اعتبارُ جهةٍ أخرى، فبالتَّبَعِ والقصدِ الثاني، لا بالقصدِ الأول، والدليلُ على ذلك أمورٌ: أحدها: أنَّ كُلَّ علمٍ لا يفيدُ عملاً؛ فليس في الشرعِ ما يدلُّ على استحسانه، ولو كان له غايةٌ أخرى شرعيةٌ؛ لكان مُستَحَسَنًا شرعاً، ولو كان مُستَحَسَنًا شرعاً، لَبَحَثَ عنه الأوَّلون من الصحابةِ والتابعين، وذلك غير موجودٍ، فما يلزم عنه كذلك^(١).

والثاني: أنَّ الشرعَ إنما جاء بالتعبُّدِ، وهو المقصودُ من بَعَثَةِ الأنبياءِ ﷺ؛ بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوقًا رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَهْكَمْتُ أَيْنَهُ، ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ ١ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ١-٢].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ

(١) لا يريدُ الشيخُ - إن شاء الله - ما استحدثه النَّاسُ من علومٍ تقتضيها حالُ العصرِ، كعلمِ الكيمياءِ والهندسةِ ومباحثِ الطبِّ، والحرارةِ والكهرباءِ وغيرها، فهذه داخلةٌ في المقاصدِ العامةِ للشريعةِ، وإنما يريدُ الشيخُ ما استحدثه النَّاسُ بعد الأوَّلين من علمِ الفلسفةِ النظريةِ المحضَةِ، وعلمِ الكلامِ، ومباحثِ التصوفِ، وعلمِ الفلكِ من حيث التأثير لا من حيث التسيير والنظر في ملكوت السموات، وعليه فلا يصحُّ الاعتراضُ على الشيخِ هنا؛ لأنَّه تكلمَ على حسب معطيات عصره، ويجب أن نفهم كلامه في إطار زمانه، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿ [إبراهيم: ١].

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يُسَوِّونَ به غيره في العبادة؛ فذمهم على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ [الكهف: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تُحصى، كلُّها دالٌّ على أنَّ المقصود التعبد لله، وإنما أتوا بأدلة التوحيد ليتوجَّهوا إلى المعبود بحقٍّ وحده، سبحانه لا شريك له، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآنَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٤].

وقال: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

ومثله سائر المواضع التي نصّ فيها على كلمة التوحيد، لا بُدَّ أن أعقبت بطلب التعبد لله وحده، أو جعل مقدّمة لها، بل أدلّة التوحيد هكذا جرى مساق القرآن فيها: ألا تُذكر إلا كذلك؛ وهو واضح في أن التعبد لله هو المقصود من العلم، والآيات في هذا المعنى لا تحصى.

والثالث: ما جاء من الأدلّة الدالّة على أن روح العلم هو العمل، وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

قال قتادة: يعني لذو عمل بما علّمناه.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وروي عن أبي جعفر محمد بن عليّ في قوله تعالى: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤]. قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره.

وقال سفيان الثوري: إِنَّمَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِيُتَّقَى بِهِ اللَّهُ، وَإِنَّمَا فَضِّلَ الْعِلْمُ عَلَى غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ يُتَّقَى اللَّهُ بِهِ.

وعن النبي ﷺ؛ أنه قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ خَصَالٍ»، وذكر فيها: «وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟»^(١).

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣-٢٤).

وعن أبي الدرداء: «إنما أخافُ أن يُقالَ لي يومَ القيامةِ: أَعَلِمْتَ أمَ جهلتَ؟ فأقول: علمْتُ فلا تبقى آيةٌ من كتابِ اللهِ امرأةٌ أو زاجرةٌ إلا جاءني تسألني فريضتها، فتسألني المرأةُ: هل ائتمرت؟ والزاجرةُ: هل ازدجرت؟ فأعوذُ باللهِ من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمعُ».

وحديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قال فيه: «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمَةً فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّ لِيْقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

وقال الحكماء: مَنْ حَبَبَ اللهُ عَنْهُ الْعِلْمَ، عَذَّبَهُ بِهِ عَلَى الْجَهْلِ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ فَأَدْبَرَ عَنْهُ، وَمَنْ أَهْدَى اللهُ إِلَيْهِ عِلْمًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ.

وقال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: اَعْلَمُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا، فَلَنْ يَأْجُرَكُمْ اللهُ بِعِلْمِهِ حَتَّى تَعْمَلُوا.

وكان رجلٌ يسألُ أبا الدرداء، فقال له: كُلُّ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ تَعْمَلُ بِهِ؟ قال: لا، قال: فما تصنعُ بازديادِ حُجَّةِ اللهِ عليك؟!

وقال الحسنُ: اعتبروا النَّاسَ بأعمالهم، ودَعُوا أَقْوَاهُمْ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَدَعْ قَوْلًا إِلَّا جَعَلَ عَلَيْهِ دَلِيلًا مِنْ عَمَلٍ يَصَدِّقُهُ أَوْ يَكْذِبُهُ، فَإِذَا سَمِعْتَ قَوْلًا حَسَنًا فَرَوَيْدًا بِصَاحِبِهِ، فَإِنْ وَافَقَ قَوْلُهُ عَمَلَهُ، فَنَعَمْ وَنِعْمَةٌ عَيْنٍ.

وقال ابنُ مسعودٍ: إِنَّ النَّاسَ أَحْسَنُوا الْقَوْلَ كُلَّهُمْ، فَمَنْ وَافَقَ فَعَلُهُ قَوْلَهُ، فَذَلِكَ

الذي أصابَ حظَّه، ومَن خَالَفَ فعله قوله، فَإِنَّمَا يُؤَبِّخُ نَفْسَهُ.

وقال الثوريُّ: إِنَّمَا يُطْلَبُ الحديثُ لِيَتَّقِيَ به الله عَزَّ وَجَلَّ، فلذلك فَضِّلَ على غيره

من العلوم، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء.

وذكر مالكٌ أَنَّهُ بَلَغَهُ عن القاسمِ بن محمدٍ، قال: أدركتُ النَّاسَ وما يُعجبهم

القولُ، إِنَّمَا يُعجبهم العملُ.

والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تُحصى، وكلُّ ذلك يُحَقِّقُ أَنَّ العلمَ وسيلةٌ من

الوسائل، ليس مقصودًا لنفسه من حيث النظر الشرعيُّ، وإِنَّمَا هو وسيلةٌ إلى العملِ،

وكلُّ ما وَرَدَ في فضلِ العلمِ فَإِنَّمَا هو ثابتٌ للعلمِ من جهةٍ ما هو مكلفٌ بالعملِ به.

فلا يُقالُ: إِنَّ العلمَ قد ثَبَتَ في الشريعةِ فضلهُ، وإنَّ منازلَ العلماءِ فوقَ منازلِ

الشهداءِ، وإنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ مرتبةَ العلماءِ تلي مرتبةَ الأنبياءِ، وإن كان

كذلك، وكان الدليلُ الدالُّ على فضله مطلقًا لا مقيدًا؛ فكيف يُنكَرُ أَنَّهُ فضيلةٌ مقصودةٌ

لا وسيلةٌ؟ هذا وإن كان وسيلةً من وجهٍ؛ فهو مقصودٌ لنفسه أيضًا، كالإيمانِ؛ فَإِنَّهُ

شرطٌ في صحَّةِ العباداتِ ووسيلةٌ إلى قبولها، ومع ذلك؛ فهو مقصودٌ لنفسه.

لأنَّا نقولُ: لم يثبت فضله مطلقًا بل من حيث التوسُّلُ به إلى العملِ، بدليل ما

تقدَّم ذكره آنفًا، وإلا تعارضت الأدلة، وتناقضت الآيات والأخبارُ، وأقوالُ السلفِ

الأخيارِ، فلا بُدَّ من الجمعِ بينهما، وما ذكر آنفًا شرحٌ لما ذكر في فضلِ العلمِ والعلماءِ،

وأما الإيمانُ؛ فإنه عملٌ من أعمالِ القلوبِ، وهو التصديقُ، وهو ناشئٌ عن العلمِ،

والأعمالُ قد يكون بعضها وسيلةً إلى بعضٍ، وإن صحَّ أن تكون مقصودةً في أنفسِها،

أما العلمُ فَإِنَّهُ وسيلةٌ، وأعلى ذلك العلمُ بالله، ولا تصحُّ به فضيلةٌ لصاحبه حتى

يصدق بمقتضاه، وهو الإيمان بالله.

فإن قيل: هذا متناقض؛ فإنه لا يصح العلم بالله مع التكذيب به.

قيل: بل قد يحصل العلم مع التكذيب، فإن الله قال في قوم: ﴿وَحَدِّثُوا بِهِمَا وَاسْتَفَيَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

فأثبت لهم المعرفة بالنبي ﷺ ثم بين أنهم لا يؤمنون، وذلك مما يوضح أن الإيمان غير العلم، كما أن الجهل مغاير للكفر.

نعم، قد يكون العلم فضيلة، وإن لم يقع العمل به على الجملة، كالعلم بفروع الشريعة والعوارض الطارئة على التكليف، إذا فرض أنها لم تقع في الخارج، فإن العلم بها حسن، وصاحب العلم مثاب عليه وبالغ مبالغ العلماء، لكن من جهة ما هو مظنة الانتفاع عند وجود محله، ولم يخرج ذلك عن كونه وسيلة، كما أن في تحصيل الطهارة للصلاة فضيلة، وإن لم يأت وقت الصلاة بعد، أو جاء ولم يمكنه أداؤها لعذر، فلو فرض أن تطهر على عزيمة ألا يصلي؛ لم يصح له ثواب الطهارة، فكذلك إذا علم على ألا يعمل؛ لم ينفعه علمه، وقد وجدنا وسمعنا أن كثيرًا من اليهود والنصارى يعرفون دين الإسلام، ويعلمون كثيرًا من أصوله وفروعه، ولم يكن ذلك نافعًا لهم مع البقاء على الكفر باتفاق أهل الإسلام.

فالحاصل: أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ شَرْعِيٍّ لَيْسَ بِمَطْلُوبٍ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يُتَوَسَّلُ بِهِ إِلَيْهِ،
وهو العمل^(١).

عَالِمُ السُّوءِ، وَمَثَلُهُ:

العملُ إذا انْسَلَخَ عن العلمِ أَدْخَلَ حَامِلَهُ فِي دَائِرَةِ عَالِمِ السُّوءِ، وَعَلِمَ اللهُ إِنَّهَا
لدائِرَةٌ قَبِيحَةٌ لَا تَضُمُّ إِلَّا مَنْ رَقَّ دِينُهُ وَغُلِظَ حِجَابُهُ وَبَاعَ لِلشَّيْطَانِ نَفْسَهُ.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي «الموافقات» (١/١٠٣): «إِنَّ عُلَمَاءَ السُّوءِ هُمُ الَّذِينَ
لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ».

وعلماءُ السُّوءِ مَنْ أخطَرَ الأخطارَ عَلَى النَّاسِ وَالدينِ جَمِيعًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وعلماءُ السُّوءِ جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا
النَّاسَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ، فَكَلَّمَا قَالَتْ أَقْوَالُهُمُ لِلنَّاسِ: هَلُمُّوْا،
قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ: لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ، فَلَوْ كَانَ مَا دَعَا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا أَوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ،
فَهُمْ فِي الصُّورَةِ أَدِلَاءٌ، وَفِي الْحَقِيقَةِ قُطَاعُ الطَّرِيقِ»^(٢).

وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى لِعَالِمِ السُّوءِ فِي كِتَابِهِ مَثَلًا شَنِيعًا، قَبِيحَ الطَّلَعَةِ، كَرِيهَ
الْمَنْظَرِ، كَالِحَ الْوَجْهِ؛ فَمَا مَثَلُ عَالِمِ السُّوءِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى إِلَّا كَمَثَلِ الْكَلْبِ فِي
لَهْثَانِهِ، كَذَا قَضَى رَبُّنَا وَقَدَّرَ.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ

(١) «الموافقات» للشاطبي، تحقيق مشهور حسن سلمان (١/٧٣).

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص ٨١).

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ﴿١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا مثلُ عالمِ السُّوءِ الذي يعملُ بخلافِ علمِهِ، وتأمل ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الآيةُ من ذَمِّهِ، وذلك من وجوه:

أحدها: أَنَّهُ ضَلَّ بعد العلم، واختارَ الكفرَ على الإيمانِ عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أَنَّهُ فَارَقَ الإيمانَ مفارقةً مَنْ لا يعودُ إليه أبداً، فَإِنَّهُ انسلَخَ من الآياتِ بالجملةِ كما تنسلَخُ الحيَّةُ من قِشْرِهَا، ولو بقي معه منها شيءٌ لم ينسلَخِ منها.

وثالثها: أَنَّ الشيطانَ أدركه وَلَحِقَهُ بحيث ظفَرَ به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، ولم يقل: تَبِعَهُ، فَإِنَّ فِي مَعْنَى أَتْبَعَهُ: أدركه ولحقه، وهو أبلغُ مِنْ تَبِعَهُ لفظاً ومعنى.

ورابعها: أَنَّهُ غَوَى بعد الرُّشْدِ، والغِيُّ: الضلالُ في العلمِ والقصدِ، وهو أَخْصَصُ بفسادِ القصدِ والعملِ، كما أَنَّ الضلالَ أَخْصَصُ بفسادِ العلمِ والاعتقادِ، إِذَا أُفْرِدَ أحدهما دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ، وَإِنْ اقْتَرْنَا فَالْفَرْقُ مَا ذُكِرَ.

وخامسها: أَنَّهُ سَبَحَانَهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَرْفَعَهُ بِالْعِلْمِ فَكَانَ سَبَبَ هَلَاكِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرْفَعْ بِهِ فَصَارَ وَبَالاً عَلَيْهِ، فلو لم يكن عالِماً كان خيراً له وَأَخَفَ لِعَذَابِهِ.

وسادسها: أَنَّهُ سَبَحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْ خِسَّةِ هَمَّتِهِ، وَأَنَّهُ اخْتَارَ الْأَسْفَلَ الْأَدْنَى عَلَى الْأَشْرَفِ الْأَعْلَى.

وسابعها: أَنَّ اخْتِيَارَهُ لِلْأَدْنَى لَمْ يَكُنْ عَنْ خَاطِرٍ وَحْدَيْهِ نَفْسٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَنْ إِخْلَادٍ إِلَى الْأَرْضِ، وَمِيلٍ بِكَلْبِيَّتِهِ إِلَى مَا هُنَاكَ، وَأَصْلُ الْإِخْلَادِ: اللُّزُومُ عَلَى

الدوام، كأنه قيل: لَزِمَ الميلَ إلى الأرضِ، ومن هذا يُقالُ: أَخْلَدَ فلانٌ بالمكانِ إذا لَزِمَ الإقامةَ به.

قال مالكُ بنُ نُويرةَ:

بِأَبْنَاءِ حَيٍّ مِنْ قَبَائِلِ مَالِكٍ وَعَمَرُو بَنِ يَرْبُوعٍ أَقَامُوا فَأَخْلَدُوا

وعَبَّرَ عن ميله إلى الدنيا بإخلاقه إلى الأرضِ، لأنَّ الدنيا هي الأرضُ وما فيها وما يُستخرجُ منها من الزينةِ والمتاعِ.

وثامنها: أَنَّهُ رَغِبَ عن هُداةِ وَاتَّبَعَ هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أَنَّهُ شَبَّهَهُ بالكلبِ الذي هو أَخْسُ الحيواناتِ هَمَّةً، وأسقطها نفسًا، وأبخلها، وأشدَّها كَلْبًا، ولهذا سُمِّيَ كَلْبًا.

وعاشرها: أَنَّهُ شَبَّهَ لَهْثَهُ على الدنيا، وعدمَ صَبْرِهِ عنها، وَجَزَعَهُ لفقدِها، وحرصه على تحصيلها، بلهثِ الكلبِ في حالتي تركهِ وَالْحَمْلِ عليه بالطَّرْدِ، وهكذا هذا إنْ تُرِكَ فهو لَهْثَانُ على الدنيا، وإنْ وُعِظَ وَزُجِرَ فهو كذلك، فاللَهْثُ لا يفارقه في كلِّ حالٍ كَلَهْثِ الكلبِ.

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: كُلُّ شَيْءٍ يَلْهَثُ فَإِنَّمَا يَلْهَثُ مِنْ إِعْيَاءٍ أَوْ عَطَشٍ إِلَّا الْكَلْبُ^(١)،

فإنَّه يَلْهَثُ فِي حَالِ الْكَلَالِ، وَحَالِ الرَّاحَةِ، وَحَالِ الرِّيِّ، وَحَالِ الْعَطَشِ؛ فَضَرَبَهُ اللهُ

(١) إِنَّ جُلُودَ الْكِلَابِ لَا تَحْوِي غُدَدًا عَرَقِيَّةً، وَالْغُدُّ الْعَرَقِيَّةُ طَرِيقٌ مِنْ طَرِيقِ الْإِخْرَاجِ، وَلَأَجْلِ عَدَمِ وَجُودِهَا فِي جُلُودِ الْكِلَابِ، تَسْتَعِضُّ بِاللَّهْثَانِ كَطَرِيقٍ مِنْ طَرِيقِ الْإِخْرَاجِ، وَلِذَلِكَ يُرَى الْكَلْبُ فِي حَالَاتِهِ كُلِّهَا لَاهِثًا، فَهَذَا سَبَبُهُ وَاللهُ أَعْلَمُ، فَسَبَّحَانَ مَنْ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ كَلَامُهُ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُ فَعَلُهُ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ قَوْلِهِ وَفَعَلِهِ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

مثلاً لهذا الكافر، فقال: **إِنْ وَعَظْتُهُ فَهُوَ ضَالٌّ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَهُوَ ضَالٌّ، كَالْكَلْبِ إِنْ طَرَدْتَهُ لَهَثَ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ عَلَى حَالِهِ لَهَثَ، وَهَذَا التَّمْثِيلُ لَمْ يَقَعْ بِكُلِّ كَلْبٍ، وَإِنَّمَا وَقَعَ بِالْكَلْبِ اللَّاهِثِ، وَذَلِكَ أَحْسُّ مَا يَكُونُ وَأَشْنَعُهُ**^(١).

فإِذَا عَلِمَ الْعَالِمُ أَمَرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ وَنَهْيَهُ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَنْسَلِخَ مِمَّا عَلِمَ، وَيَنْكُصَ عَلَى عَقْبِيهِ، وَإِلَّا فَهُوَ عَالِمٌ سُوءٌ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي تَفْسِيرِهِ: «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٢٧٢): «وفي هذه الآياتِ: الترغيبُ في العملِ بالعلمِ، وأن ذلك رفعةٌ من الله لصاحبه، وعصمةٌ من الشيطانِ، والترهيبُ من عدمِ العملِ بالعلمِ، وأنَّه نزولٌ إلى أسفلٍ سافلينَ، وتسليطٌ للشيطانِ عليه».

حَالُ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ:

حَالُ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ حَالُ مَعْصِيَةٍ، وَحَالُ جَهْلٍ، وَقَدْ أَجْمَعَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ لَا يَعِصِي اللَّهَ إِلَّا جَاهِلٌ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأَصْلُ مَا يُوقِعُ النَّاسَ فِي السَّيِّئَاتِ: الْجَهْلُ، وَعَدَمُ الْعِلْمِ بِكُونِهَا تَضَرُّهُمْ ضَرَرًا رَاجِحًا، أَوْ ظَنُّ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ نَفْعًا رَاجِحًا».

ولهذا قال الصحابةُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَفَسَّرُوا بِذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾

[النساء: ١٧].

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ١٣٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ولهذا يُسمَّى حال فعل السيئات «جاهلية» فإنه يصاحبها حال من حال الجاهلية. قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل، ومن تاب قبيل الموت فقد تاب من قريب.

وعن قتادة قال: أجمع أصحاب محمد ﷺ على أن كل من عصى ربه فهو في جهالة، عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل، وكذلك قال التابعون ومن بعدهم.

قال مجاهد: من عمل ذنباً - من شيخ أو شاب - فهو بجهالة.

وقال: من عصى ربه فهو جاهل، حتى ينزع عن معصيته.

وقال أيضاً: هو إعطاء الجهل العمدة.

وقال مجاهد أيضاً: من عمل سوءاً خطأ، أو إثماً عمداً، فهو جاهل، حتى ينزع منه. رواه ابن أبي حاتم.

ثم قال: روي عن قتادة، وعمر بن مرة، والثوري: ونحو ذلك خطأ أو عمداً. وروي عن مجاهد، والضحاك، قالوا: ليس من جهالته ألا يعلم حلالاً ولا حراماً،

ولكن من جهالته حين دَخَلَ فيه»^(١).

فحال المخالفة معصية وجهالة كما رأيت، وليست الجهالة التي هي ضد العلم فإن العلم بالتحريم شرط لكون المعصية معصية، وإنما الجهالة للوقوع في الذنب والولوج في المعصية.

قال السعدي رحمه الله: «توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد.

فأخبر هنا أن التوبة المستحقة على الله، حق أحقه على نفسه، كرمًا منه وجودًا، لمن عمل السوء، أي: المعاصي بجهالة، أي: جهالة منه لعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه.

فكل عاصي لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالمًا بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية، معاقبًا عليها»^(٢).

قال أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، ما التوبة على الله لأحد من خلقه إلا للذين يعملون السوء من المؤمنين بجهالة ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، يقول: ما الله براجع إلى أحد من خلقه إلى ما يحبه من العفو عنه والصفح عن ذنوبه التي سلفت منه، إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالة منهم، وهم بريهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعة الله ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به، من الندم عليه والاستغفار وترك العود

(١) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية (ص ٦٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص ١٣٧).

إلى مثله من قبل نزول الموت، وذلك هو (القريب) الذي ذكره الله - تعالى ذكره -، فقال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾.

وبنحو ما قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل، غير أنهم اختلفوا في معنى قوله ﴿بِجَهْلَةٍ﴾.

فقال بعضهم في ذلك بنحو ما قلنا فيه، وذهب إلى أن عمله السوء، هو (الجهالة) التي عناها.

عن أبي العالقة، أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة.

وعن قتادة قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾، قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو (جهالة) عمداً كان أو غيره. وعن مجاهد: قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ قال: كل من عمل بمعصية الله، فذاك منه بجهل حتى يرجع عنه.

وعن السدي: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾، ما دام يعصي الله فهو جاهل.

وعن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ ثم يتوبون من قريب، قال: «الجهالة» كل امرئ عمل شيئاً من معاصي الله فهو جاهل أبداً حتى ينزع عنها، وقرأ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]، وقرأ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، قال: من عصي الله فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، يعملون ذلك على عمدٍ منهم له.

عن مجاهد: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، قال: الجهالة: العمد.
وعن الصَّحَّاحِ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، قال: الجهالة: العمد.

وقال آخرون: معنى ذلك: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ للذين يعملون السُّوءَ في الدنيا.
عن عكرمة: قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، قال: الدنيا كلها جهالة.

قال أبو جعفر - هو ابن جرير الطبري رحمه الله - وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، قول من قال: تأويلها: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ للذين يعملون السُّوءَ، وعملهم السُّوءَ هو الجهالة التي جهلوا، عامدين كانوا للإثم، أو جاهلين بما أعدَّ الله لأهلها^(١).

فارتكابُ المعصية، ومخالفةُ مقتضى العلم، يتنافى مع حقيقة العلم، ويُوقِعُ في الجهالة التي هي ضدُّ العلم، والتي يفرُّ منها كلُّ عالمٍ، وهذا هو ما يُسمَّى بـ (جهل العلم)، وقد عقدتُ له بفضلِ الله ورحمته، وحولِهِ وقوته بابًا خاصًّا به في كتاب «دَمُّ الجهل»، إذ كان هذا اللونُ من الجهلِ أخطرَ شيءٍ على العلم، بل هو آفتهُ التي تصرفُ النَّاسَ عنه، وتُسيءُ ظنَّهم به.

(١) «تفسير الطبري»، تحقيق محمود محمد شاكر (٨/ ٨٨).

وَمَنْ خَالَفَ بَيْنَ عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ، فَقَدْ أَشْبَهَ الْيَهُودَ مِثْلَهُ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ عَلَى قَدْرِ مَا خَالَفَ، كَمَا أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِلَا عِلْمٍ فَقَدْ أَشْبَهَ النَّصَارَى عَلَى قَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ.

«جَمَاعُ ذَلِكَ أَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ أَصْلُهُ: مِنْ جِهَةٍ عَدِمَ الْعَمَلُ بَعْلَمَهُمْ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَتَّبِعُونَهُ قَوْلًا، أَوْ عَمَلًا، أَوْ لَا قَوْلًا وَلَا عَمَلًا، وَكُفْرُ النَّصَارَى مِنْ جِهَةِ عَمَلِهِمْ بِلَا عِلْمٍ، فَهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي أَصْنَافِ الْعِبَادَاتِ بِلَا شَرِيعَةٍ مِنَ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ، كَسَفِيَانِ بْنِ عُيَيْنَةَ وَغَيْرِهِ يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عِلْمَانَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى»^(١).

وَمِثَابَةُ الْفَاسِدِ مِنَ الْعُلَمَاءِ لِلْيَهُودِ هِيَ مِنْ جِهَةٍ كَوْنِهِ غَيْرَ عَامِلٍ بِعِلْمِهِ، فَكَذَلِكَ الْيَهُودُ، فَإِنَّهُ قَدْ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ فَلَمْ يَحْمِلُوهَا، وَأَوْصَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَأْخُذُوا مَا آتَاهُمْ بِقُوَّةٍ فَلَمْ يَأْخُذُوا بِهِ أَصْلًا لِذَلِكَ شَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِالْحِمَارِ يَحْمِلُ الْأَسْفَارَ عَلَى ظَهْرِهِ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِالَّذِي يَحْمِلُهُ، وَلَا اسْتِفَادَةَ لَهُ مِنَ الَّذِي يَحْمِلُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَاسَ سُبْحَانَهُ مَنْ حَمَلَهُ كِتَابَهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَيَتَذَكَّرَهُ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيَدْعُوَ إِلَيْهِ، ثُمَّ خَالَفَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَحْمِلْهُ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ، فَقَرَأَتْهُ بَغَيْرِ تَذَكُّرٍ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي (ص ٥).

ولا تفهّم ولا اتّباع له، ولا تحكّم له، وعمل بموجبه - كحمارٍ على ظهره زاملةٌ أسفاريّ، لا يدري ما فيها، وحظّه منها حملةٌ على ظهره ليس إلا، فحظّه من كتاب الله كحظّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره.

فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤدّ حقه، ولم يرعه حقّ رعايته^(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يقول تعالى ذامًا لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها: مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاريًا؛ أي: كمثل الحمار إذا حمل كُتُبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيًّا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظًا ولم يتفهّموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرّفوه، وبدّلوه، فهم أسوأ حالًا من الحمير؛ لأنّ الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى هاهنا: ﴿يَسْئَلُ الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «ضرب مثلاً لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ، ﴿حُمِلُوا النُّورَ﴾، أي: كلّفوا العمل بها؛ عن ابن عباسٍ.

وعن الجرجاني: هو من الحمالة، بمعنى الكفالة، أي: ضمّنوا أحكام التوراة،

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ١٦٥).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٣٦٤).

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، وهي: جمعُ سِفْرِ، وهو الكتابُ الكبير؛ لأنه يُسَفَرُ عن المعنى إذا قُرئ.

وفي هذا تنبيهٌ من الله تعالى لمن حَمَلَ الكتابَ أن يتعلَّم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذمِّ ما لحق هؤلاء، قال الشاعر:

زَوَامِلُ لِلْأَسْفَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ^(١) أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ
﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، أي: لم يعملوا بها، شَبَّههم والتوارة في أيديهم وهم لا يعملون بها - بالحمار يحمل كُتُبًا وليس له إلا ثِقْلُ الحِمْلِ من غير فائدة^(٢).

قلت: وقد ضَرَبَ الله عِجَالًا مَثَلَ عَالِمِ السُّوءِ - كما مرَّ - في سورة الأعراف، فكانَ مَثَلًا رَهيبًا قَاسِيًا عَلَى مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيدٌ؛ حَذَرًا من الوقوع فيه أو الدخول في دائرته، إذ كان مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ اللَّاهِثِ الذي لا ينفك عن اللَّهْثَانِ أَبَدًا.

وهنا مَثَلُ الْعَالِمِ الذي لَا يَعْمَلُ بعِلْمِهِ، كَالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَ الْعِلْمِ عَلَى ظَهْرِهِ، مَا حَصَلَ مِنْهَا عِلْمًا، وَمَا أَوْرَثَتْهُ تَفَكُّرًا، وَمَا أَفَادَتْهُ عَقْلًا.

﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

قال تعالى لنبيه يحيى العليُّ: ﴿يَنِيحَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

[مريم: ١٢].

(١) الْأَوْسَاقُ: جمعُ وَسَقٍ، وهو حِمْلُ البعير.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨ / ٩١).

قال السعدي رحمه الله: «أمر الله يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة؛ أي: بجِدِّ واجتهادٍ، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾»^(١).

وقال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿يَنحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة بلا خلاف، و﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدِّ واجتهادٍ؛ قاله مجاهد، وقيل: العلم به، والحفظ له، والعمل به، وهو الالتزام لأوامره، والكف عن نواهيه؛ قاله زيد بن أسلم»^(٢).

وقد أخذ الله الميثاق على اليهود من قبل بالإيمان به، واتباع رسله، وأمرهم تعالى أن يأخذوا ما آتاهم بقوة؛ أي: بطاعة وعملٍ بما فيه، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

قال في «عمدة التفسير» (١/ ١٦١): «يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وامتثالٍ.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّضْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص ٤٤٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٩٢).

ءَاتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذَكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ [الأعراف: ١٧١]، ف «الطور»، هو الجبل، كما فُسِّرَ به في الأعراف، ونصَّ على ذلك ابنُ عباسٍ وغيرُ واحدٍ، وهذا ظاهرٌ.

وقال الحسنُ في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ﴾، يعني: التوراة.

وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: طاعةٍ، وعملٍ بما فيه.

﴿وَأَذَكُرُوا مَا فِيهِ﴾: يقول: اقرءوا ما في التوراة واعملوا به.

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، حين امتنعوا من قبول ما في التوراة، فالزمهم الله العمل، وتَقَّ فوق رؤوسهم الجبل فصار فوقهم: ﴿كَانَهُ ظُلُمَةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ﴾.

وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجِدِّ واجتهادٍ، ﴿وَأَذَكُرُوا مَا فِيهِ﴾، دراسةً ومباحثةً واتصافاً بالعمل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك»^(١).

ولذلك كان السلفُ رَحِمَهُمُ اللهُ يعتبرون النَّاسَ بأعمالهم لا بأقوالهم، وكلُّ مَنْ خَالَفَ فعله قوله، فلا اعتبارَ له عندهم.

قال الحسنُ رَحِمَهُ اللهُ: «اعتبروا النَّاسَ بأعمالهم، ودعُوا أقوالهم، فإنَّ الله لم يدع قولاً إلا جعلَ عليه دليلاً من عملٍ يُصَدِّقُهُ أو يُكْذِّبُهُ، فإذا سمعتَ قولاً حسناً فَرُوَيْدًا بصاحبه، فإن وافق قولُ عملاً فنعم ونعمةٌ عَيْنٍ، آخِهِ، وأحِبِّهِ، وإن خَالَفَ قولُ عملاً فماذا يَشْبَهُ عليك منه؟! أمَاذا يَخْفَى عليك منه؟! إِيَّاكَ وَإِيَّاهُ لا يَخْدَعَنَّكَ كما خُدِعَ ابنُ آدَمَ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٢٧١).

إِنَّ لَكَ قَوْلًا وَعَمَلًا، فَعَمَلُكَ أَحَقُّ بِكَ مِنْ قَوْلِكَ، وَإِنَّ لَكَ سِرِيرَةً وَعِلَانِيَةً، فَسِرِيرَتُكَ أَحَقُّ بِكَ مِنْ عِلَانِيَتِكَ، وَإِنَّ لَكَ عَاجِلَةً وَعَاقِبَةً، فَعَاقِبَتُكَ أَحَقُّ مِنْ عَاجِلَتِكَ.

وعن قيس بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اجتمع ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ عند ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فتذاكروا الخيرَ فَرَقُوا، وواقِدُ بن الحارثٍ ساكتٌ، فقالوا: يا أبا الحارثِ ألا تتكلم؟ قال: قد تكلمتُمْ وكفيتُمْ، قالوا: تكلم فما أنت بأصغرنا سنًا، فقال: أسمعُ القولَ، فالقولُ قولٌ خائفٍ، وأنظرُ الفعلَ، فالفعلُ فعلٌ آمِنٍ.

وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ قد أحسنوا القولَ كُلَّهُمْ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ فذلك الذي أصابَ حظَّهُ، وَمَنْ خَالَفَ قَوْلُهُ عَمَلَهُ، فَإِنَّمَا يُوَبِّخُ نَفْسَهُ^(١).

العلمُ بين الصُّورةِ والحقيقةِ:

لكلِّ شيءٍ اسمٌ وصورةٌ وحقيقةٌ، وأهمُّ ذلك وأجلُّه وأعظمُّه حقيقةُ الشيءِ وجوهرُهُ.

ولا يُغني الاسمُ وحده شيئاً دون الصورةِ والحقيقةِ، ولا تغني الصورةُ شيئاً أيضاً دون الحقيقةِ والجوهرِ، وأمَّا حقيقةُ الشيءِ فتدُلُّ على اسمِهِ وصورتِهِ، وهي لبُّ اللُّبِّ، وأصلُّ وجودِ الشيءِ وكيوننِهِ.

ولو أنَّ جائعاً أخذَ يَرُدُّ إلى يومٍ يُصعقون كلمةً: «خُبْزٌ» ما أغنت عنه من الجوع شيئاً، ولا سدَّتْ له جوعَةً، ولا رَدَّتْ عنه مَسْغَبَةً، بل لزادته جوعاً بما يبذل من جهدٍ، وما يستدعيه اللفظُ من خيالاتٍ لا يملك منها شيئاً.

(١) كتاب: «الصمت وآداب اللسان» لابن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف (ص ٥٦٥).

ولو أَنَّهُ صَوَّرَ فِي قِرطاسٍ صُورَةَ رَغِيفٍ، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُهُ مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا، وَقَائِمًا وَقَاعِدًا، مَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا جُوعًا، وَمَسْغَبَةً.

وَلَكِنَّهُ لَوْ وَقَعَ مِنْ حَقِيقَةِ الْخُبْزِ عَلَى كِسْرَةٍ يَابِسَةٍ، لَكَانَتْ أَجْدَى فِي رَدِّ غَائِلَةِ الْجُوعِ وَكَسْرِ حَدَّتِهِ.

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا تَرَتُّعَ الْجِرْدَانُ فِي بَيْتِهِ وَتَمَرَّحُ فِي مَسْكِنِهِ، أَخَذَ يَرُدُّدُ كَلِمَةً: «قِطٌّ» مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرُدُّدَ، مَا زَادَتْ الْفُئْرَانُ عَلَى سَمَاعِهَا إِلَّا مَرَحًا وَنَشَاطًا.

وَلَوْ أَنَّهُ صَوَّرَ صُورَةَ قِطٍّ فِي قِرطاسٍ، بَلْ صُورَةَ أُسْدٍ^(١)، ثُمَّ عَلَّقَهَا هُنَا وَهَنَا، وَأَلْقَاهَا فِي الزَّوَايَا، لَوَجَدْتَ فِيهَا الْفُئْرَانُ مَادَّةَ غِذَاءٍ، وَسَبَبَ بَقَاءٍ.

وَلَكِنْ لَوْ أَنَّهُ أَتَى بِقِطٍّ تَعِيسٍ بَيْسٍ، مَهْزُولٍ أَعْجَفَ، فَأَخَذَ يَمُوءُ فِي الْأَرْجَاءِ مِنَ الضَّرِّ وَالْأَلَمِ، وَالْحَزَنِ وَالْكَمَدِ، لَوَقَفْتَ الْجِرْدَانُ عِنْدَ حُدُودِ الْأَدَبِ، إِذْ رَأَتْ الْحَقِيقَةَ شَاخِصَةً، وَالذَّاتَ بَادِيَةً.

وَعَلَى مِثْلِ هَذَا يُقَاسُ «الْعِلْمُ» مَعَ فَوَارِقِ الرِّتْبَةِ وَاخْتِلَافَاتِ الْمَرْتَبَةِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعِلْمَ حَشَوُ الرَّأْسِ بِكَلَامٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي خَارِجِ النَّفْسِ فَقَدْ أَبْعَدَ النَّجْعَةَ^(٢)، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَمَّ الْمِطَابَقَةُ بَيْنَ الثَّابِتِ فِي النَّفْسِ وَالْحَقِيقَةِ ذَاتِهَا.

«الْعِلْمُ نَقْلُ صُورَةِ الْمَعْلُومِ مِنَ الْخَارِجِ، وَإِثْبَاتُهَا فِي النَّفْسِ.

وَالْعَمَلُ نَقْلُ صُورَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَإِثْبَاتُهَا فِي الْخَارِجِ.

(١) تصوُّرُ ذَوَاتِ الْأَوْرَاحِ حَرَامٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

(٢) النَّجْعَةُ: طَلَبُ الْكَلَامِ وَمَسَاقِطِ الْغِيثِ.

فإن كان الثابتُ في النفس مطابقاً للحقيقة في نفسها فهو علمٌ صحيحٌ.
وكثيراً ما يثبتُ ويتراءى في النفسِ صورٌ ليس لها وجودٌ حقيقيٌّ، فيظنُّها الذي
قد أثبتَها في نفسه علماً، وإنَّما هي مُقدَّرةٌ لا حقيقةَ لها، وأكثرُ علومِ النَّاسِ من هذا
البابِ، وما كان منها مُطابقاً للحقيقة في الخارج فهو نوعان:
نوعٌ تكملُ النفسُ بإدراكِهِ وهو العلمُ بالله، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعاليهِ، وكُتُبِهِ،
وأمرِهِ، ونهيهِ.

ونوعٌ لا يحصلُ للنفسِ به كمالٌ، وهو كلُّ علمٍ لا يضرُّ الجهلُ به، فإنَّه لا ينفعُ
العلمُ به، وكان النبيُّ ﷺ يستعيذُ بالله من علمٍ لا ينفعُ، وهذا حالُ أكثرِ العلومِ
الصحيحةِ المطابقةِ التي لا يضرُّ الجهلُ بها شيئاً؛ كالعلمِ بالفلكِ ودقائقهِ ودرجاتِهِ،
وعددِ الكواكبِ ومقاديرِها، والعلمِ بعددِ الجبالِ وألوانِها ومساحاتِها، ونحو ذلك^(١)،
فَشَرَفُ العلمِ بحسبِ شَرَفِ معلومِهِ وشِدَّةِ الحاجةِ إليه، وليس ذلك إلا العلمُ بالله
وتوابع ذلك.

وأما العلمُ فآفتهُ عدمُ مطابقتهِ لمرادِ الله الدينيِّ الذي يحبُّه الله ويرضاه، وذلك
يكون من فسادِ العلمِ تارةً، ومن فسادِ الإرادة تارةً، ففسادُهُ من جهةِ العلمِ أن يعتقداً

(١) ما ذكره الشيخ رحمه الله هنا هو بحسبِ الأفراد؛ فلا يضرُّ مسلماً بعينه ألا يعلم مما ذكره الشيخُ
شيئاً، ولكنَّ مجموعَ الأمةِ فإنَّ الجهلَ بما ذكره الشيخُ يضرُّها ضرراً بليغاً، إذ إنَّ النظرَ في
ملوكوتِ السمواتِ والأرضِ لاستنباطِ أسرارِ المادةِ التي أودعها الله مصنوعاتِهِ، وامتلاكِ
أسبابِ القوةِ فرضٌ واجبٌ على الأمةِ، وإلا امتلك ذلك أعداؤها، وتداعى عليها الأكلةُ من
كلِّ صوبٍ، كما هو الواقعُ، فليتنزَّلَ كلامُ الشيخِ على مراده - رحمه الله تعالى -.

أنَّ هذا مشروعٌ محبوبٌ لله وليس كذلك، أو يعتقد أنَّه يقربُه إلى الله وإن لم يكن مشروعاً، فيظنُّ أنَّه يتقربُ إلى الله بهذا العملِ، وإن لم يعلم أنَّه مشروعٌ.

وأما فسادُه من جهةِ القصدِ فألاً يقصدُ به وجهُ الله والدارِ الآخرة، بل يقصدُ به الدنيا والخلقُ، وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل إلى السلامةِ منهما إلا بمعرفةٍ ما جاء به الرسولُ في باب العلم والمعرفة، وإرادة وجه الله والدارِ الآخرة في باب القصدِ والإرادة، فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة فسَدَ علمُه وعملُه.

والإيمانُ واليقينُ يورثان صحَّةَ المعرفة وصحَّةَ الإرادة، وهما يورثان الإيمان ويمدَّانِه، ومن هنا يُتبيَّنُ انحرافُ أكثر النَّاسِ عن الإيمان لانحرافهم عن صحَّةِ المعرفة وصحَّةِ الإرادة، ولا يتمُّ الإيمانُ إلا بتلقِّي المعرفة من مشكاة النبوة، وتجريد الإرادة عن شوائبِ الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمُه مُقتبساً من مشكاة الوحي، وإرادته لله والدارِ الآخرة، فهذا أصحُّ النَّاسِ علماً وعملاً، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله، ومن خلفاءِ رسوله في أمته^(١).

وقد يكون العبدُ هاجراً لكتاب الله تعالى، وهو مقيمٌ لحروفه يلوكُ بها لسانه، ويظنُّ أنه قد أوفى على الغاية وبلغ النهاية، وما هو في حقيقة الأمر إلا هاجر لكتاب ربه بهجره للعمل به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «هَجَرُ الْقُرْآنِ أَنْوَاعٌ:

أَحَدُهَا: هَجَرُ سَمَاعِهِ، وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ.

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ١١٢).

والثاني: هَجْرُ العملِ به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هَجْرُ تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية، لا تحصل العلم.

والرابع: هَجْرُ تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هَجْرُ الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]^(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغو واللغوا فيه غيره حتى لا يسمعه، فهذا من هجرانه.

وترك الإيمان به، وترك التصديق به من هجرانه.

وترك تدبره وتفهمه من هجرانه.

وترك العمل به، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه من هجرانه.

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص ١٠٩).

والعدول عنه إلى غيره من شعرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذةٍ من غيره من هجرانه.

فنسأل الله الكريم المتأن القادر على كل شيء، أن يُخَلِّصَنَا مِمَّا يُسْخِطُهُ، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه، وفهمه، والقيام بمقتضاه، آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يُحِبُّه ويرضاه، إنه كريمٌ وهَّابٌ^(١).

فَمِنْ هَجَرِ الْقُرْآنِ كَمَا رَأَيْتَ: تركُ العملِ به، وإن كان الهاجرُ مقيماً لحروفه، بارعاً في تلاوته، إذ كان من أوَّلِ الْقَصْدِ بِالْقُرْآنِ الْعَمَلُ بِهِ، والوقوفُ عند حلاله وحرامه، والالتئامُ بأمره، والانتهاؤُ بنهيهِ.

ومهما يكن للعالم من بيانٍ مُشْرِقِ السَّمَاتِ، حُلُوِ الْقَسَمَاتِ، فَعَمَلُهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُصَدِّقاً لِقَوْلِهِ، دليلاً عليه وبرهاناً له.

وفي مخالفة القول للعملِ مفسدةُ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، كما قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «علماءُ السُّوءِ جلسوا على بابِ الْجَنَّةِ، يدعون إليها النَّاسَ بِأَقْوَاهُمْ، ويدعونهم إلى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ، فكلَّمَا قَالَتْ أَقْوَاهُمْ لِلنَّاسِ: هَلُمُّوا، قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ: لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ، فلو كان ما دَعَوْا إِلَيْهِ حَقًّا كانوا أوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ، فهم في الصُّورَةِ أَدِلَّاءُ، وفي الْحَقِيقَةِ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ»^(٢).

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٣١٧).

(٢) «الفوائد» (ص ٨١).

الدَّيْلُ بِالْفِعْلِ أَرشَدُ مِنَ الدَّيْلِ بِالْقَوْلِ :

ما أرسل الله تعالى رسولا، ولا بعث نبيا، إلا وهو قُدوةٌ سلوكيةٌ يجسّدُ للمدعوين ما يدعوهم إليه من مكارم الأخلاق، وحميد الخصال وكريم الخلال، وحقيقة التوحيد.

وقد كان النبي ﷺ أعظم الخلق اتباعا لأمر ربّه، واجتنابا لنهيّه، وقد كان ﷺ يجسّد الدين تجسيدا، فما أمر بشيء إلا وكان أول الناس إتيانا له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول الناس انتهاء عنه وأبعد الناس عنه، فصلّى الله تعالى وسلّم عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين.

والنّاس إلى الاقتداء بالعمل أحوجّ منهم إلى استماع القول، وقديما قيل: فَعَلُ رَجُلٍ أَنْفَعُ لَأَلْفِ رَجُلٍ مِنْ كَلَامِ أَلْفِ رَجُلٍ لِرَجُلٍ.

فالدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول، وهو درسُ تعلّمه ابن الجوزي رحمه الله، وهو بعدُ حَدَثٌ صغيرٌ، فكان أفعَلُ في نفسه من السّحر، وأجدى عليه من كثيرٍ من القول، ثمّ هاهو يدلُّ عليه ويُرشّدُ إليه فيقول: «لَقِيتُ مشايخَ أحوالهم مختلفةً، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه.

ولقيت جماعةً من علماء الحديث يحفظون ويعرفون، ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبةٍ يُخرجونها مَخْرَجَ جَرَحٍ وتعديلٍ، يأخذون على قراءة الحديث أجرّةً ويُسرّعون بالجواب لئلا ينكسر الجاه، وإن وقع الخطأ.

ولقيتُ عبد الوهاب الأنباطيَّ، فكان على قانونِ السَّلَفِ لم يُسمَع في مجلسِهِ
غَيْبَةً ولا كان يطلبُ أجراً على سماعِ الحديثِ، وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديثَ الرقائقِ
بكى، واتَّصَلَ بكأؤُهُ.

فكان - وأنا صغيرُ السنِّ حينئذٍ - يعمل بكأؤُهُ في قلبي، وبين يدي قواعدَ، وكان على
سمِّ المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقلِ.

ولقيتُ الشيخَ أبا منصورَ الجواليقيَّ، فكان كثيرَ الصمتِ، شديدَ التحريِّ فيما
يقولُ، مُتَقِنًا مُحَقِّقًا، وربَّما سُئِلَ المسألةَ الظاهرةَ التي يبادرُ بجوابها بعضُ علمائه،
فيتوقَّفُ فيها حتى يتيقَّنَ.

وكان كثيرَ الصومِ والصمتِ، فانتفعتُ برؤية هذين الرجلين أكثرَ من انتفاعي
بغيرهما.

ففهمتُ من هذه الحالة أنَّ الدليلَ بالفعلِ أرشدُ من الدليلِ بالقولِ.

ورأيتُ مشايخَ كانت لهم خَلَوَاتُ في انبساطٍ ومُزَاحٍ، فراحوا عن القلوبِ،
وبَدَّدَ تفریطُهُم ما جمعوا من العلمِ، فقلَّ الانتفاعُ بهم في حياتهم، ونُسوا بعد مماتهم،
فلا يكاد أحدٌ أن يلتفتَ إلى مصنَّفاتِهِم، فاللَّهَ اللّهُ في العملِ بالعلمِ، فإنَّه الأصلُ
الأكبرُ.

والمسكينُ كلُّ المسكينِ مَنْ ضاعَ عُمُرُهُ في علمٍ لم يعمل به، ففاتتُهُ لذاتُ الدنيا
وخيراتُ الآخرة، فَقَدِمَ مُفْلِسًا مع قُوَّةِ الْحُجَّةِ عليه»^(١).

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي، تحقيق عبد القادر عطا (ص ١٦٨).

وَصَفَ الطَّرِيقَ، وَمَا يَلْزَمُ السَّفَرَ الْعَظِيمَ:

وصف ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ الطَّرِيقَ، وَالزَّادَ، وَالْمَرْكَبَ اللازِمَ لِلسَّفَرِ الْعَظِيمِ؛ سَفَرِ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ وَآخِرَتِهِ، فَقَالَ: «أَمَّا زَادُهُ: فَالْعِلْمُ الْمُرُوثُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ رَحِمَهُمُ اللهُ، وَلَا زَادَ لَهُ سِوَاهُ، فَمَنْ لَمْ يَحْصُلْ هَذَا الزَّادَ فَلَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ، وَلَيَقْعُدُ مَعَ الْخَالِفِينَ.

فَرَفَقَاءُ الْمُتَخَلِّفِ الْبَطَّالُونَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا، فَلَهُ أَسْوَةٌ بِهِمْ، وَلَنْ يَنْفَعَهُ هَذَا التَّأْسِي يَوْمَ الْحَسْرَةِ شَيْئًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، فَقَطَعَ اللهُ سَبْحَانَهُ انْتِفَاعَهُمْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فِي الْعَذَابِ؛ فَإِنَّ مَصَائِبَ الدُّنْيَا إِذَا عَمَّتْ صَارَتْ مَسَلَةً، وَتَأْسَى بَعْضُ الْمَصَابِينِ بِبَعْضٍ كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ:

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسْلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

فَهَذَا الرُّوحُ الْحَاصِلُ مِنَ التَّأْسِي مَعْدُومٌ بَيْنَ الْمُشْرَكِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَأَمَّا طَرِيقُهُ: فَهُوَ بَذْلُ الْجُهْدِ وَاسْتِفْرَافُ الْوُسْعِ، فَلَا يُنَالُ بِالْمُنَى وَلَنْ يُدْرَكَ

بِالْهُوَيْنَى، وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قِيلَ:

فَخُضْ عَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَاسْمُ إِلَى الْعُلَا لِكَيْ تُدْرِكَ الْعِزَّ الرَّفِيعَ الدَّائِمَ^(١)

(١) هَكَذَا وَرَدَ الْبَيْتُ فِي جَمِيعِ طَبَعَاتِ كِتَابِ الْإِمَامِ رَحِمَهُ اللهُ، بِهَذِهِ الضَّرُورَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْقَبِيحَةِ فِي

كَسْرِ رَقْبَةِ النَّحْوِ، وَمَا كَانَ أَجْدَرُ الْإِمَامَ ابْنَ الْقِيمِ، وَهُوَ مَنْ هُوَ سَعَةً حَفَظَ وَاطْلَاعَ أَنْ يَسْتَشْهَدَ بِغَيْرِ هَذَا الشَّعْرِ، وَفِيهِ مَا فِيهِ.

فَلَا خَيْرَ فِي نَفْسٍ تَخَافُ مِنَ الرَّدِّ وَلَا هِمَّةٍ تَصْبُو إِلَى لَوْمٍ لَائِمٍ

وَلَا سَبِيلَ إِلَى رُكُوبِ هَذَا الظَّهْرِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ:

أحدهما: ألا يصبو في الحق إلى لوم لائم، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه، ويجعله صريعاً في الأرض.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض.

ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر، فمن صبر قليلاً صارت تلك الأهوال ريحاً رخاء في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخاف منها، إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه.

وأما مركبه: فصدق اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه، والضراعة إليه، وصدق التوكل والاستعانة، والانطراح بين يديه انطراح المثلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده، فهو يتطلع إلى قيمه وولييه أن يجده^(١) ويلم شعته، ويمدّه من فضله ويستره، فهذا الذي يرجى له أن يتولى الله هدايته، وأن يكشف له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة، أي: الهجرة إليه سبحانه ومنازلها^(٢).

(١) يُجِدُّهُ: من أجَدَّ فلانٌ: صار ذا جدٍّ واجتهادٍ، ويجدُّه: يجعله ذا جدٍّ واجتهادٍ. القاموس المحيط (جدد) (١٠٩/١).

(٢) «زاد المهاجر إلى ربه»، لابن القيم (ص ٤٠).

مدار صلاح أمر العبد:

مدار صلاح أمر العبد - بعد توفيق الله تعالى له - منوطٌ بعُلُوِّ هِمَّتِهِ، فمن رُزِقَ هِمَّةً عاليةً لم تقف به عند منزلٍ، وإنما تسمو به عند كلِّ منزلٍ إلى ما وراءه من المنازلِ، كما قال عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه بعد أن رُزِقَ الخلافةَ وزهدَ في أُمَمَتِهَا: لقد رُزِقْتُ نفسًا تَوَاقَّةً، ما وصلت إلى شيءٍ إلا وتاقت إلى ما وراءه، وقد رُزِقْتُ الدنيا فتاقت نفسي إلى الآخرة.

والجمعُ بين العلم والعملِ شاقٌّ عسيرٌ، يحتاجُ إلى هِمَّةٍ عاليةٍ، تُورِثُ نصَبًا لا يزولُ وتعبًا لا يحولُ.

قال ابن الجوزي رحمته الله: «من رُزِقَ هِمَّةً عاليةً يُعَذِّبُ بمقدارِ علوها، كما قال الشاعر:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ
وقال الآخر:

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُولِ بَلِيَّةٌ وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي
وبيانُ هذا أنَّ مَنْ عَلَتِ هِمَّتُهُ؛ طَلَبَ العلومَ كُلَّهَا، ولم يقتصر على بعضها، وطلَبَ من كلِّ علمٍ نهايته، وهذا لا يحتمله البدنُ.

ثمَّ يرى أنَّ المرادَ العملَ، فيجتهدُ في قيامِ الليلِ وصيامِ النَّهارِ، والجمعُ بين ذلك وبين العلمِ صعبٌ، ثمَّ يرى تَرَكَ الدنيا ويحتاجُ إلى ما لا بُدَّ منه.

وَيُحِبُّ الْإِيثَارَ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْبَخْلِ، وَيَتَقَاضَاهُ الْكَرْمُ الْبَذْلَ، وَيَمْنَعُهُ عِزُّ النَّفْسِ
عَنِ الْكَسْبِ مِنْ وَجْهِ التَّبَدُّلِ^(١).

فَإِنْ هُوَ جَرَى عَلَى طَبْعِهِ مِنَ الْكَرَمِ، احْتِجَاجَ وَافْتَقَرَ وَتَأَثَّرَ بِدُنُوِّهِ وَعَائِلَتِهِ، وَإِنْ
أَمْسَكَ فَطَبْعُهُ يَأْبَى ذَلِكَ.

وَفِي الْجُمْلَةِ يَحْتَاجُ إِلَى مَعَانَاةٍ وَجَمْعٍ بَيْنَ أَضْدَادٍ، فَهُوَ أَبَدًا فِي نَصَبٍ لَا يَنْقُضِي،
وَتَعَبٍ لَا يَفْرُغُ.

ثُمَّ إِذَا حَقَّقَ الْإِحْلَاصَ فِي الْأَعْمَالِ زَادَ تَعَبُهُ، وَقَوِيَ نَصَبُهُ، فَأَيْنَ هُوَ وَمَنْ دَنَتْ
هِمَّتُهُ؟ إِنْ كَانَ فَقِيهًا فَسُئِلَ عَنْ حَدِيثٍ قَالَ: مَا أَعْرِفُهُ، وَإِنْ كَانَ مُحَدِّثًا فَسُئِلَ عَنْ
مَسْأَلَةٍ فَقَهِيَّةٍ، قَالَ: مَا أَدْرِي، وَلَا يَبَالِي إِنْ قِيلَ عَنْهُ: مُقَصِّرٌ.

وَالْعَالِي الْهِمَّةُ يَرَى التَّقْصِيرَ فِي بَعْضِ الْعُلُومِ فَضِيحَةً قَدْ كَشَفَتْ عَيْبَهُ، وَقَدْ أَرَتِ
النَّاسَ عَوْرَتَهُ.

وَالْقَصِيرُ الْهِمَّةُ لَا يُبَالِي بِمَنْ النَّاسِ، وَلَا يَسْتَقْبِحُ سَوَالَهُمْ، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ رَدِّ،
وَالْعَالِي الْهِمَّةُ لَا يَحْمِلُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ تَعَبَ الْعَالِي الْهِمَّةُ رَاحَةً فِي الْمَعْنَى، وَرَاحَةُ الْقَصِيرِ
الهِمَّةُ تَعَبٌ وَشَيْنٌ، إِنْ كَانَ ثُمَّ فَهَمٌ.

وَالدُّنْيَا دَارُ سَبَاقٍ إِلَى أَعَالِي الْمَعَالِي، فَيَنْبَغِي لَذِي الْهِمَّةِ أَلَّا يُقَصِّرَ فِي شَوْطِهِ، فَإِنْ
سَبَقَ فَهُوَ الْمَقْصُودُ، وَإِنْ كَبَا جَوَادُهُ مَعَ اجْتِهَادِهِ لَمْ يُلَمَّ^(٢).

(١) التَّبَدُّلُ: تَرْكُ الصِّيَانَةِ وَالتَّرَفُّعِ.

(٢) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص ٥٧٠).

قال أبو الطيّب:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ

العمل من مراتب العلم، وهو ثمرته:

جعل الإمام ابن القيم رحمه الله العمل مرتبة من مراتب العلم، وجعل عدم العمل بالعلم موجباً للحرمان منه، فقال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

«للعلم ستُّ مراتب:

أولها: حسن السؤال.

الثانية: حسن الإنصات والاستماع.

الثالثة: حسن الفهم.

الرابعة: الحفظ.

الخامسة: التعليم.

السادسة: وهي ثمرته، وهي العمل به، ومراعاة حدوده.

فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجْرِمُهُ لِعَدَمِ حُسْنِ سَوَالِهِ؛ إِمَّا أَنَّهُ لَا يَسْأَلُ بِحَالٍ، أَوْ يَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ وَغَيْرُهُ أَهَمُّ مِنْهُ؛ كَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ فَضُولِهِ الَّتِي لَا يَضُرُّ جَهْلُهُ بِهَا، وَيَدْعُ مَا لَا غِنَى لَهُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَهَذِهِ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْجُهَّالِ الْمُتَعَلِّمِينَ.

ومن النَّاسِ مَنْ يُحَرِّمُهُ لِسُوءِ إِنْصَاتِهِ، فيكونُ الكلامُ والمهارةُ آثَرَ عنده وأحبَّ إليه من الإنصاتِ؛ وهذه آفةٌ كامنةٌ في أكثرِ النفوسِ الطَّالِبَةِ للعلمِ، وهي تمنعُهُم علماً كثيراً، ولو كان حَسَنَ الفَهمِ...

والمقصودُ: بيانُ حرمانِ العلمِ من هذه الوجوهِ الستَّةِ:

أحدها: تركُ السؤالِ.

الثاني: سوءُ الإنصاتِ وعدمُ إلقاءِ السَّمْعِ.

الثالث: سوءُ الفَهمِ.

الرابع: عَدَمُ الحفظِ.

الخامس: عَدَمُ نشرِه وتعليمِه، فإنَّ من خَزَنَ علمَه ولم ينشرِه ولم يُعلِّمِه ابتلاه الله بنسيانِه وذَهَابِه منه، جزاءً من جنسِ عملِه، وهذا أمرٌ يشهد به الحِسُّ والوجودُ.

السادس: عَدَمُ العملِ به؛ فإنَّ العملَ به يُوجبُ تذكُّرَه وتدبُّرَه ومراعاتَه والنَّظَرَ فيه، فإذا أهْمَلَ العملَ به نَسِيَهُ.

قال بعضُ السَّلَفِ: كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ بِالْعَمَلِ بِهِ.

وقال بعضُ السَّلَفِ أَيْضاً: الْعِلْمُ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ حَلٌّ وَإِلَّا ارْتَحَلَ.

فالعملُ به من أعظمِ أسبابِ حِفْظِهِ وَثْبَاتِهِ، وتركُ العملِ به إضاعةٌ له.

فما اسْتُدِرَّ الْعِلْمُ وَلَا اسْتَجْلِبَ بِمَثَلِ الْعَمَلِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلتان: طلبية؛ وهي الأمر بالتقوى، وخبرية؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، أي: ما تَتَّقُونَ، وليست جواباً للأمر بالتقوى، ولو أُريدَ بها الجزاء لَأَتَى بها مجزومة عن الواو، فكان يقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ يُعَلِّمُكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] فتدبره^(١).

* الْعَقَبَاتُ الثَّلَاثُ:

دون العبد ونجاته عَقَبَاتُ ثَلَاثٌ؛ فالعقبة الأولى: عقبة العلم بما جاء به النبي ﷺ، فإن تجاوزها وعَلِمَ، فعقبة العمل بما عَلِمَ، فإن تجاوزها وعَمِلَ، فعقبة الإخلاص في العمل.

وما من شرٍّ في العالم إلا ومبعثه مخالفة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً أو هما معاً، فإذا صَحَّ التَّلَقِّي عنه ﷺ وصَحَّتِ المتابعة زالت الشرور على حَسَبِ قُوَّةِ التَّلَقِّي وقُوَّةِ المتابعة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَنَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر، وردَّ ما تنازعتم فيه إليَّ وإلى رسولي، خيرٌ لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خيرٌ لكم

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١١).

وأحسنُ عاقبةً.

فدلَّ هذا على أنَّ طاعةَ الله ورسوله، هو سببُ السعادةِ عاجلاً وآجلاً، ومن تدبَّرَ العالمَ والشرورَ الواقعةَ فيه علمَ أنَّ كلَّ شرٍّ في العالمِ سببُهُ مخالفةُ الرسولِ والخروجُ عن طاعتهِ، وكلُّ خيرٍ في العالمِ فإنَّه بسببِ طاعةِ الرسولِ ﷺ.

وكذلك شرورُ الآخرةِ وآلامُها وعذابُها إنّما هو من موجباتِ مخالفةِ الرسولِ ومقتضياتها، فعاد شرُّ الدنيا والآخرةِ إلى مخالفةِ الرسولِ وما يترتبُ عليه، فلو أنَّ النَّاسَ أطاعوا الرسولَ حقَّ طاعتهِ لم يكن في الأرضِ شرٌّ قطُّ، وهذا كما هو معلومٌ في الشرورِ العامّةِ والمصائبِ الواقعةِ في الأرضِ، فكذلك هو في الشرِّ والآلَمِ والغَمِّ الذي يصيبُ العبدَ في نفسه، فإنَّما هو بسببِ مخالفةِ الرسولِ ﷺ، ولأنَّ طاعتهِ هي الحصنُ الذي مَنْ دَخَلَهُ كان من الآمنين، والكهفُ الذي مَنْ لجأَ إليه كان من الناجين.

فعلِمَ أنَّ شرورَ الدنيا والآخرةِ إنّما هو الجهلُ بما جاء به الرسولُ ﷺ والخروجُ عنه.

وهذا برهانٌ قاطعٌ على أنَّه لا نجاةَ للعبدِ ولا سعادةَ إلا بالاجتهادِ في معرفةِ ما جاء به الرسولُ ﷺ علماً، والقيامُ به عملاً.

وكمالُ هذه السعادةِ بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوةُ الخلقِ إليه.

والثاني: صبرُهُ واجتهادهُ على تلك الدعوة.

فانحصر الكمالُ الإنسانيُّ على هذه المراتبِ الأربعِ:

أحدها: العلمُ بما جاء به الرسولُ ﷺ.

والثانية: العملُ به.

والثالثة: نشرُهُ في النَّاسِ ودعوتُهُمْ إليه.

والرابعة: صبرُهُ وجهادُهُ في أدائِهِ وتنفيذِهِ.

وَمَنْ تَطَلَّعَتْ هِمَّتُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم وَأَرَادَ اتِّبَاعَهُمْ، فَهَذِهِ طَرِيقَتُهُمْ حَقًّا.

فَإِنْ شِئْتَ وَصَلَ الْقَوْمَ فَاسْلُكْ سَبِيلَهُمْ فَقَدْ وَضَحْتَ لِلسَّالِكِينَ عِيَانًا^(١)

وعليه فالعلمُ بما جاء به الرسولُ ﷺ من غيرِ عَمَلٍ به لا يُؤدِّي إلى النجاة فضلًا عن أن يؤدي إلى كمالِ السعادةِ وتَمَامِ الفلاحِ.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «لَوْ لَا الْعَقْلُ لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ، وَلَوْ لَا الْعِلْمُ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ، وَلَئِنْ أَدَعَ الْحَقُّ جَهْلًا بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ أَدَعَهُ زَهْدًا فِيهِ.

وَقَالُوا: مَنْ حَبَبَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِلْمَ عَذَّبَهُ عَلَى الْجَهْلِ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ فَأَدْبَرَ عَنْهُ، وَمَنْ أَهْدَى اللَّهُ إِلَيْهِ عِلْمًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ.

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَيْلٌ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَعْمَلُ مَرَّةً، وَوَيْلٌ لِمَنْ يَعْلَمُ وَلَا يَعْمَلُ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» فَمَا لَنَا

(١) «زاد المهاجر إلى ربِّه» لابن القيم (ص ٢٩).

ندعو فلا يُستجاب لنا؟ فقال إبراهيم: من أجل خمسة أشياء، قال: وما هي؟ قال: عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقَّه، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وقلتم نحبُّ الرسول وتركتم سنته، وقلتم: نلعنُ إبليس وأطعتموه، والخامسة: تركتم عيوبكم وأخذتم في عيوب النَّاسِ^(١).

مَنْزِلَةُ الْفِرَارِ:

ومن منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : مَنْزِلَةُ الْفِرَارِ.
قال الله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وحقيقة الفِرَارِ: الهربُ من شيءٍ إلى شيءٍ، وهو نوعان: فرارُ السُّعْدَاءِ، وفرارُ الْأَشْقِيَاءِ.
ففرارُ السُّعْدَاءِ: الفرارُ إلى الله عَجَلًا، وفرارُ الْأَشْقِيَاءِ: الفرارُ منه لا إليه.
وأما الفرارُ منه إليه: ففرارُ أوليائه، قال ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، فَرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته، وقال سهلُ بنُ عبد الله: فَرُّوا مِمَّا سَوَّى اللَّهُ إِلَى اللَّهِ، وقال آخرون: اهربوا من عذابِ الله إلى ثوابِهِ بِالْإِيمَانِ والطاعة.
وقال صاحبُ الْمَنَازِلِ: «هو الهربُ ممَّا لم يكن إلى مَنْ لم يَزَلْ، وهو على ثلاث درجاتٍ: فرارُ الْعَامَّةِ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ عَقْدًا وَسَعِيًّا، ومن الْكَسَلِ إِلَى التَّشْمِيرِ جِدًّا وَعَزْمًا، ومن الضيقِ إِلَى السَّعَةِ ثَقَّةً وَرَجَاءً». يريدُ بما لم يَكُنْ: الْخَلْقَ، وبما لم يَزَلْ: الْحَقَّ.
وقوله: فرارُ الْعَامَّةِ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ عَقْدًا وَسَعِيًّا.

(١) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٢ / ٤).

الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه.

فكلاهما جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة، قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، لما قال له قومه: ﴿اتَّخِذْنَا هُزُؤًا﴾ ، أي: من المستهزئين، وقال يوسف الصديق: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي: من مرتكبي ما حرمت عليهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، وقال غيره: أجمع الصحابة أن كل من عصي الله فهو جاهل، وقال الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلُن أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
وسمّي عدم مراعاة العلم جهلاً، إمّا لأنه لم يُنتفع به، فنزل منزلة الجهل، وإمّا لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله.

فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفةً وبصيرةً، ومن جهل العمل إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعيًا. قوله: ومن الكسل إلى التشمير جدًّا وعزمًا.

أي: يفر من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد. والجد هاهنا هو صدق العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون وهو تحت السين وسوف، وعسى، ولعل، فهي أضّر شيء على العبد، وهي شجرة ثمرها الحسرات والندامات.

والفرق بين الجِدِّ والعزم: أنَّ العزمَ صدقُ الإرادةِ واستجماؤها، والجِدُّ صدقُ العملِ وبذلُ الجهدِ فيه.

وقد أمر الله ﷻ بتلقي أوامره بالعزم والجِدِّ فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]. وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وقال: ﴿يَبْحِثْ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أي: بجِدِّ واجتهادٍ وعزمٍ، لا كمن يأخذ ما أمر به بترددٍ وفتورٍ^(١).

وقد أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عن أبي القاسمِ الجنيدِ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «متى أردت أن تشرف بالعلم وتنسب إليه، وتكون من أهله، قبل أن تُعطي العلم ما له عليك، احتجب عنك نورُهُ، وبقي عليك سُمُهُ وظهورُهُ.

ذلك العلمُ عليك لا لك، وذلك أنَّ العلمَ يشيرُ إلى استعمالِهِ، فإذا لم تستعمل العلمَ في مراتبِهِ رحلت بركائتُهُ.

وقال أبو قلابَةَ لأَيُّوبَ -رحمهما اللهُ-: يا أَيُّوبُ، إذا أحدثَ اللهُ لك علماً فأحدثَ اللهُ عبادةً، ولا يكونَنَّ هَمُّكَ أن تُحدِّثَ به النَّاسَ.

وقال فضيلُ بن عياضٍ: لا يزالُ العالمُ جاهلاً بما علم، حتى يعملَ به، فإذا عَمِلَ به كان عالماً^(٢).

والعملُ بالعلم، وحملُ النفسِ على ما تكره من مضادةِ الهوى، ومُجانبةِ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب (ص ٣١).

الشهوات من جهاد النفس.

«وجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى، وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا، وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ، شَقِيتَ فِي الدَّارَيْنِ.

الثانية: أن يُجَاهِدَهَا، عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمَجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعَهَا.

الثالثة: أن يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ، مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الرابعة: أن يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ.

فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ، فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ، وَيَعْمَلَ بِهِ، وَيُعَلِّمَهُ فَمَنْ عِلْمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ»^(١).

«ومراتب العلم والعمل ثلاث:

رواية: وهي مَجَرَّدُ النَّقْلِ وَحَمْلِ الْمَرْوِيِّ.

ودراية: وهي فَهْمُهُ وَتَعَقُّلُ مَعْنَاهُ.

(١) «زاد المعاد» لابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوطيين (١٠/٣).

ورعاية: وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالنقلة همّتهم الرواية، والعلماء همّتهم الدراية، والعارفون همّتهم الرعاية.

وقد ذمّ الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حقّ رعايته، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، فالوقف التأم عند قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثم يتدبّر: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾؛ أي: لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم، ولم نكتبها عليهم، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾، منصوب بمقدّر محذوف مفسّر بهذا المذكور، على قول البصريين، أي: وابتدعوا رهبانية، وليس منصوباً بوقوع الجعل عليه. أمّا نصب قوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾، فالصواب أنه منصوبٌ نصب الاستثناء المنقطع؛ أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودلّ على هذا قوله: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾، ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنّه هو طلب رضوان الله، ثمّ ذمّهم بترك رعايتها.

والقصد: أن الله ﷻ ذمّ من لم يرع قربة ابتدعها الله تعالى حقّ رعايتها، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده، وأذن بها وحثّ عليها؟! ^(١).

وأعلى أصناف العلماء منزلة: العالم العامل المعلّم، يليها العالم العامل الذي لم يفرط، وأمّا العلم الخالي من العمل، الخالي بالبطالة والأمل، فهو وبّال على صاحبه، وفتنة للخلق.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٠).

«العلماء ثلاثة:

* عالمٌ استنارَ بنوره واستنار به النَّاسُ، فهذا من خلفاء الرُّسُلِ وورثة الأنبياء.

* وعالمٌ استنارَ بنوره ولم يستنر به غيره، فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصراً على نفسه.

* وعالمٌ لم يستنر بنوره، ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبأل عليه»^(١).

وللعلم الصحيح ثمرة في القلب والجوارح واللِّسان، فمن فقد تلك الثمرة فهو مغبونٌ، وعلمه صورة العلم دون حقيقته، والوقوف مع صورة العلم دون حقيقته ضربٌ من الخبال.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «وَجَدْتُ رَأْيِي نَفْسِي فِي الْعِلْمِ حَسَنًا، فَهِيَ تَقْدُمُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَتَعْتَقِدُ الدَّلِيلَ، وَتَفْضِلُ سَاعَةَ التَّشَاغُلِ بِهِ عَلَى سَاعَاتِ النِّوَافِلِ، وَتَقُولُ: أَقْوَى دَلِيلٍ لِي عَلَى فَضْلِهِ عَلَى النِّوَافِلِ، أَنِّي رَأَيْتُ كَثِيرًا مِمَّنْ شَغَلَتْهُمْ نَوَافِلُ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ عَنِ نَوَافِلِ الْعِلْمِ عَادَ ذَلِكَ عَلَيْهِمُ بِالْقَدَحِ فِي الْأُصُولِ، فَرَأَيْتُهَا فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ عَلَى الْجَادَّةِ السَّهْلَةِ وَالرَّأْيِ الصَّحِيحِ.

إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُهَا وَاقِفَةً مَعَ صُورَةِ التَّشَاغُلِ بِالْعِلْمِ، فَصَحْتُ بِهَا: فَمَا الَّذِي أَفَادَكَ الْعِلْمُ؟ أَيْنَ الْخَوْفُ؟ أَيْنَ الْقَلْقُ؟ أَيْنَ الْحَذَرُ؟

أَوْ مَا سَمِعْتَ بِأَخْبَارِ أَخْيَارِ الْأَخْبَارِ فِي تَعَبُّدِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ؟

أَمَّا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ سَيِّدَ الْكُلِّ، ثُمَّ إِنَّهُ قَامَ حَتَّى وَرِمَتْ قَدَمَاهُ؟

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٢).

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجيَّ النسيج، كثير البكاء؟
 أما كان في خدِّ عمر رضي الله عنه خطَّان من آثار الدموع؟
 أما كان عثمان رضي الله عنه يَحْتَمُ القرآن في ركعة^(١)؟
 أما كان علي رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تَخْضَلَ حَيْثُهُ بالدموع؟
 ويقول: يا دُنْيَا غُرِّي غيري؟
 أما كان الحسنُ البصري يحيا على قوَّة القَلَق؟
 أما كان سعيدُ بنُ المسيَّب ملازمًا للمسجد، فلم تُفْتَهُ صلاةٌ في جماعةٍ أربعين سنةً؟
 أما صامَ الأسودُ بنُ يزيدَ حتى اخْضَرَ واصْفَرَ؟^(٢)
 أما قالت بنتُ الربيع بن خثيمٍ له: ما لي أرى النَّاسَ ينامون وأنت لا تنام؟
 فقال: إنَّ أباك يخافُ عذابَ البيات.
 أما كان أبو مسلمٍ الخولانيُّ يُعَلِّقُ سَوْطًا في المسجدِ يؤدِّبُ به نفسه إذا فتر؟
 أما صامَ يزيدُ الرقاشيُّ أربعين سنةً؟ وكان يقول: وا لهفاهُ! سبقني العابدون،
 وقُطِعَ بي.

(١) نُقلت آثارٌ كثيرةٌ في هذا ومثله في مثل: «التبيان» للنووي، وهو مُسلَّم لأصحابه إن صحَّ النقلُ عنهم، ولا يُقاسُ عليه، والسنةُ ألا تَقْلَ أيامُ الختم عن ثلاثة، ومرة أخرى: أولئك مُسلَّم لهم حالهم - رضي الله عنهم وأرضاهم - ولا يُقاسُ عليهم.
 (٢) ذكر الذهبيُّ في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٢): أنَّه لعلَّه لم يبلغه النهي أو تأوَّل.

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة؟
 أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟
 أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟
 أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم؟ أبو حنيفة، ومالك،
 والشافعي، وأحمد.

احذري من الإخلاق إلى صورة العلم، مع ترك العمل به، فإنها حالة الكسالى
 والزمنى^(١):

وَحَذَلَكَ مِنْكَ عَلَى مُهَلَةٍ وَمُقْبِلُ عَيْشِكَ لَمْ يُدِيرِ
 وَخَفَ هَجْمَةً لَا تُقِيلُ الْعَثَا رَوَّطُويِ الْوُرُودَ عَلَى الْمَصْدَرِ
 وَمَثَّلَ لِنَفْسِكَ أَيُّ الرَّعِيدِ لِيَضْمُكَ فِي حَلْبَةِ الْمَحْشَرِ^(٢)

ولا يغيبن عن البال هنا ذلك التوجيه النبوي العظيم بوضع العمل في دائرة
 الطاقة، وجعل الفعل في إطار الاستطاعة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:
 «اَكْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ»^(٣) متفق عليه.

(١) الزمانة: مرض يدوم، والزمن: وصف من الزمانة، والجمع: زمنى.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٧٠).

(٣) رواه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١١٠٣).

اكلفوا: خذوا وتحملوا.

ما تطيقون: ما تقدرون عليه دون مشقة.

ومن هذا التوجيه النبويَّ ينطلقُ ابنُ الجوزي فيقول في «صيد الخاطر» (ص ٢٠٥):
«ينبغي للعاقل ألاَّ يُقدم على العزائمِ حتَّى يزنَ نفسه، هل يطيقها؟ ويجرِّبَ نفسه في ركوبِ بعضها سرًّا من الخلق، فإنَّه لا يأمن أن يرى في حالةٍ لا يصبر عليها، ثمَّ يعود فيفتضح.

مثالُه: رجلٌ سمع بذكر الزَّهادِ فرمى ثيابه الجميلة، ولبسَ الدُّونَ، وانفردَ في زاوية، وغلبَ على قلبه ذكرُ الموتِ والآخرة، فلم يلبث مُتقاضي الطَّبع أن ألحَّ بما جرت به العادة.

فمن القومِ من عادَ بمرَّةٍ إلى أكثر ممَّا كان عليه؛ كأكلِ النَّاقِه^(١) من مرضٍ، ومنهم من توسَّطَ الحالَ فبقي كالمدبذب.

وإنما العاقلُ هو الذي يسترُ نفسه بين النَّاسِ بثوبٍ وسَطٍ لا يُخرجهُ من أهلِ الخير ولا يُدخله في زيِّ أهلِ الفاقة، فإن قويت عزمته عَمَلَ في بيته ما يطيق، وترك ثوبَ التَّجَمُّلِ لسترِ الحال، ولم يُظهر شيئاً للخلق، فإنَّه أبعدُ من الرياء وأسلمُ من الفضيحة.

وفي النَّاسِ من غلبَ عليه قصرُ الأملِ وذكرُ الآخرة حتَّى دَفَنَ كتبَ العلم، وهذا الفعلُ عندي من أعظم الخطأ، وإن كان منقولاً عن جماعةٍ من الكبار.

ولقد ذكرتُ هذا لبعض مشايخنا فقال: أخطؤوا كلُّهم.

وقد تأولتُ لبعضهم بأنَّه كان فيها أحاديثٌ عن قومٍ ضعفاءٍ ولم يميِّزوها، كما

(١) النَّاقَةُ: من شفي من مرضٍ وهو حديثٌ عهدٌ به.

رُوي عن سفيانَ عندما دَفَنَ كُتُبَهُ.

أو كان فيها شيءٌ من الرأي فلم يُجِبُوا أن يُؤْخَذَ عنهم، فكان من جنسٍ تحريقِ
عثمان بن عفانَ رضي الله عنه للمصاحفِ، لئلا يُؤْخَذَ بشيءٍ ممَّا فيها من المجمعِ على غيره.
وهذا التأويلُ يصحُّ في حقِّ علمائهم.

فأمَّا غسلُ أحمد بن أبي الحواري كُتُبَهُ، وابن أسباطٍ، فتفريطٌ محضٌ.
فالحدَرُ الحدَرُ من فعلٍ يمنعُ منه الشرعُ، أو من ارتكابٍ ما يظنُّ عزيمةً وهو
خطيئةٌ، أو من إظهارٍ ما لا يقوى عليه المظهرُ فيرجع القهقري.
وعليكم من العملِ بما تُطيقون، كما قال ﷺ.

ومعنى هذا أن يبذل المرءُ جهدهُ ويستفرغَ وسعتهُ، ولا يقصِّرَ في بذلٍ، ولا يبخل
على العملِ بعطاءٍ، لأنَّه لا يصلحُ العلمُ مع قِلَّةِ العملِ، وهذه نظرةُ ابن الجوزيِّ
رحمته الله في سبيلِ صلاحِ القلوبِ بالجمعِ بين العلمِ والعملِ، يقول رحمته الله: «رأيتُ
الاشتغالَ بالفقهِ وسماعَ الحديثِ لا يكادُ يكفي في صلاحِ القلبِ، إلا أن يُمزَجَ
بالرقائقِ والنظرِ في سيرِ السلفِ الصالحينَ، لأنَّهم تناولوا مقصودَ النقلِ، وخرجوا
عن صُورِ الأفعالِ المأمورِ بها إلى ذوقِ معانيها، والمرادُ بها.

وما أخبرْتُك بهذا إلا بعد معالجةٍ وذوقٍ؛ لأنِّي وَجَدْتُ جمهورَ المحدثينَ
وطلابَ الحديثِ، همَّةُ أحدهم في الحديثِ العالي وتكثيرِ الأجزاء.

وجمهورَ الفقهاء في علومِ الجدَلِ، وما يُغالبُ به الخصمُ.

وكيف يَرِقُّ القلبُ مع هذه الأشياءِ؟

وقد كان جماعةً من السلفِ يقصدون العبدَ الصالحَ للنظرِ إلى سَمِّهِ وهَدْيِهِ
لا لاقتباسِ علمِهِ.

وذلك أن ثمرَةَ علمِهِ هَدْيُهُ وسَمُّهُ، فافهم هذا وامزج طلبَ الفقهِ والحديثِ
بمطالعةِ سِرِّ السلفِ والزُّهادِ في الدنيا، ليكون سبباً لِرَقَّةِ قلبِكَ، والله الموفقُ
للمقصودِ، ولا يصلحُ العملُ مع قِلَّةِ العلمِ.

فَهُمَا في ضَرْبِ المثلِ كسائِقٍ وقائِدٍ، والنَّفْسُ بينهما حَرْوُنٌ، ومع جِدِّ السائِقِ
والقائِدِ ينقطعُ المنزلُ، ونعوذُ بالله من الفتورِ^(١).

لقد حَضَّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى النظرِ في سِرِّ السلفِ، وقد صار هو رَحِمَهُ اللهُ لَنَا سلفاً،
فالنظرُ في سيرته هو، يرويها بنفسِهِ عن نفسه بليغٌ في بلاغِ البيانِ، وفصيحٌ في
الإفصاحِ عن حقيقةِ هذا الشأنِ.

قال رَحِمَهُ اللهُ في «صيد الخاطر» (ص ٢٧٥): «لقد تأملتُ نفسي بالإضافةِ إلى
عشيرتي الذين أنفقوا أعمارَهُم في اكتسابِ الدنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبَوَةِ والشبابِ في
طلبِ العلمِ، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حَصَلَ لي نَدِمْتُ عليه. ثُمَّ تأملتُ
حالي فإذا عِشِي في الدنيا أجودُ من عِشْهِم، وجاهي بين النَّاسِ أعلى من جَاهِهِم،
وما نلتُهُ من معرفةِ العلمِ لا يُقاوَمُ.

فقال لي إبليسُ: ونسيتَ تَعَبَكَ وسَهَرَكَ؟

فقلتُ له: أيُّها الجاهلُ، تقطيعُ الأيدي لا وَقَعَ له عند رؤيةِ يوسفَ.

(١) «صيد الخاطر» (ص ٢٥٣).

وما طالت طريقٌ أدَّت إلى صديقٍ:

جَزَى اللَّهَ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ^(١)

ولقد كنتُ في حلاوةِ طلبِي العلمَ ألقى من الشدائدِ ما هو عندي أحلى من
العسلِ لأجلِ ما أطلبُ وأرجو.

كنتُ زمانَ الصَّبَا أَخْذُ معي أرغفةً يابسةً فأخرج في طلبِ الحديثِ، وأقعدُ على
نهرِ عيسى، فلا أقدرُ على أكلِها إلا عند الماءِ، فكلَّما أكلتُ لقمةً شربتُ عليها، وعينُ
همتي لا ترى إلا لذةَ تحصيلِ العلمِ.

فأثمر ذلك عندي أني عرفتُ بكثرةِ سماعي لحديثِ الرسولِ ﷺ وأحواله
وآدابه، وأحوالِ أصحابِهِ وتابعيهم.

وأثمر ذلك عندي من المعاملةِ ما لا يدركُ إلا بالعلمِ، حتى إنني أذكرُ في زمانِ
الصبوةِ، ووقتِ الغُلَمَةِ^(٢) والعُزْبَةِ قدرتي على أشياء كانت النفسُ تتوقُّ إليها توقَّانِ
العطشانِ إلى الماءِ الزُّلالِ، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلمُ من خوفِ الله ﷻ.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشرُ، لقد كنتُ أخاف على نفسي من العُجبِ، غير
أنَّه ﷻ صانني، وعلمني، وأطلعني من أسرارِ العلمِ على معرفتهِ، وإيثارِ الخلوةِ به،
حتى إنَّه لو حَضَرَ معي معروفٌ وبشرٌ^(٣) لرايتُهما زَحَمَةً.

(١) المَزَادَةُ: وعاءٌ يُحْمَلُ فيه الماءُ في السَّفَرِ، كَالْقِرْبَةِ ونحوها، والجمعُ: مَزَادٌ.

(٢) الغُلَمَةُ: شِدَّةُ الشهوةِ للجماعِ.

(٣) معروفٌ الكرخيُّ أبو محفوظ من كبار الزهاد، وبشرٌ بن الحارث الزاهد المعروف.

ثمَّ عادَ فغمسني في التقصيرِ والتفريطِ حتَّى رأيتُ أقلَّ النَّاسِ خيرًا مِنِّي.
وتارةً يُوقظني لقيامِ الليلِ ولذَّةِ مناجاتِهِ، وتارةً يحرمني ذلكَ مع سلامةِ بدني.
ولولا بشارَةُ العلمِ بأنَّ هذا نوعُ تهذيبٍ وتأديبٍ لخرجتُ إمَّا إلى العجبِ عند
العملِ، وإمَّا إلى اليأسِ عند البطالةِ لكنَّ رجائي في فضلهِ قد عادَلَ خوفي منه.
وقد يغلبُ الرجاءُ بقوةِ أسبابِهِ؛ لأنِّي رأيتُ أنَّه قد ربَّاني منذُ كنتُ طفلًا، فإنَّ أبي
قد مات وأنا لا أعقلُ، والأُمُّ لم تلتفتْ إليَّ، فركزَ في طبعي حبَّ العلمِ، وما زال
يوقعني على المهمِّ فالمهمِّ، ويحملني إلى مَنْ يحملني على الأصوبِ حتَّى قَوَّمَ أمري.
وكم قد قصَّدني عدوُّ فصدَّه عَنِّي، وإذ رأيتُهُ قد نصرني وبصَّرني ودافعَ عني
ووهبَ لي، وقَوَّى رجائي في المستقبلِ بما قد رأيتُ في الماضي.
ولقد تابَ على يديَّ في مجالسِ الذِّكرِ أكثرُ من مئتي ألفٍ، وأسلمَ على يديَّ أكثرُ
من مئتي نفسٍ.

وكم سألتَ عينَ متجبرٍ بوعظي لم تكن تسيلُ.
ويحقُّ لمن تَلَمَّحَ هذا الإنعامَ أن يرجو التمامَ.
وربَّما لاحَ أسبابُ الخوفِ بنظري إلى تقصيري وزَلَّي.
ولقد جِلستُ يومًا فرأيتُ حولي أكثرَ من عشرةِ آلافٍ ما فيهم إلا مَنْ قد رَقَّ
قلْبُهُ، أو دَمعتَ عينُهُ، فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إذا نَجَّوا وهلكتِ؟ فصَحَّتْ بلسانِ
وَجدي: إلهي وسيدي! إن قضيتَ عليَّ بالعذابِ غداً فلا تُعَلِّمُهُمُ بعذابِي، صيانةً
لكرمِكَ لا لأجلي، لئلا يقولوا: عَذَّبَ مَنْ دَلَّ عليه.

إِلَهِي! قد قيل لنبِيِّكَ ﷺ: اقتل ابن أبي المنافق، فقال: «لا يتحدثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»^(١).

إِلَهِي! فاحفظ حسنَ عقائدهم فيَّ بكرمِكَ أن تُعَلِّمَهُمْ بعذابِ الدليلِ عليك.
حاشاك وعزَّتكَ يا رَبِّ من تكديرِ الصافي.
لا تَبْرِ عُودًا أَنْتَ رَبِّشْتَهُ حَاشَى لِبَانِي الْجُودِ أَنْ يَنْقُضَا
لا تُعْطِشِ الزَّرْعَ الَّذِي نَبَتْهُ بِصَوْبِ إِنْعَامِكَ قَدْ رَوَّضَا

تَسْأُولُ وَجَوَابُ:

«لَمَّا كَانَ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْبَحْثُ عَنْهُ وَكَتَابَتُهُ وَالتَّفْتِيْشُ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلِ الْقَلْبِ
وَالْجَوَارِحِ كَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَمَنْزِلَتُهُ مِنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ كَمَنْزِلَةِ أَعْمَالِ الْقَلْبِ
مِنْ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ وَالْخَشْيَةِ وَالرَّضَا وَنَحْوَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ
الظَّاهِرَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَالْعِلْمُ إِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى الْعَمَلِ وَمُرَادُّهُ، وَالْعَمَلُ هُوَ الْغَايَةُ، وَمَعْلُومٌ
أَنَّ الْغَايَةَ أَشْرَفُ مِنَ الْوَسِيلَةِ فَكَيْفَ تُفَضَّلُ الْوَسَائِلُ عَلَى غَايَاتِهَا؟

قِيلَ: كُلٌّ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ:

مِنْهُ مَا يَكُونُ وَسِيلَةً.

وَمِنْهُ مَا يَكُونُ غَايَةً.

(١) رواه البخاري (٤٦٢٤)، ومسلم (٢٥٨٤).

فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها؛ فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مُراد لذاته، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فقد أخبر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض ونزل الأمر بينهن ليُعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فالعلم بوحديته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته وإن كان لا يُكتفى به وحده، بل لأبد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يُعرف الربُّ تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعبدَ بموجبها ومقتضاها، فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته.

وأيضاً؛ فإن العلم من أفضل أنواع العبادات، فهو مُتَضَمِّنٌ للغاية والوسيلة. وقولكم: إن العمل غاية، إمّا أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح، أو العمل المختصّ بالجوارح فقط.

فإن أُريدَ الأول فهو حق، وهو يدلُّ على أن العلم غاية مطلوبة لأنّه من أعمال القلب.

وإن أُريدَ به الثاني، وهو عمل الجوارح فقط، فليس بصحيح، فإن أعمال القلوب مقصودة ومرادة لذاتها، بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها؛ فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلاً وللجوارح تبعاً، وكذلك

الأعمال المقصودُ بها أوَّلاً صلاحُ القلبِ واستقامتُهُ وعبوديتهُ لربِّه ومليكيه، وجُعِلت أعمالُ الجوارحِ تابعةً لهذا المقصودِ مُرادَةً، وإن كان كثيرٌ منها مُراداً لأجلِ المصلحةِ المترتبةِ عليه، فمن أجلِّها صلاحُ القلبِ وزكاؤُهُ وطهارتُهُ واستقامتُهُ، فعِلْمُ أَنَّ الأعمالَ منها غايةٌ ومنها وسيلةٌ، وأنَّ العلمَ كذلك.

وأيضاً: فالعلمُ الذي هو وسيلةٌ إلى العملِ فقط إذا تَجَرَّدَ عن العملِ لم ينتفع به صاحبهُ فالعملُ أشرفُ منه.

وأما العلمُ المقصودُ الذي تنشأُ ثمرتُهُ المطلوبةُ منه من نفسه فهذا لا يُقالُ: إِنَّ العملَ المجرَّدَ أشرفُ منه، فكيف يكونُ مجرَّدُ العبادةِ البدنيةِ أفضلَ من العلمِ باللهِ وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره، ومن العلمِ بأعمالِ القلوبِ وآفاتِ النفوسِ والطُّرُقِ التي تُفسدُ الأعمالَ وتمنعُ وصولها من القلبِ إلى الله، والمسافاتِ التي بين الأعمالِ والقلبِ، وبين القلبِ والرَّبِّ تعالى، وبما تُقطعُ تلكَ المسافاتِ، إلى غير ذلك من علمِ الإيمانِ وما يُقوِّيه وما يُضعِّفه؟!

فكيف يُقالُ: إِنَّ مجرَّدَ التَّعَبُّدِ الظاهرِ بالجوارحِ أفضلُ من هذا العلمِ؟! بل مَنْ قامَ بالأمرين فهو أكملُ، فإذا كان في أحدهما فضلٌ ففضلُ هذا العلمِ خَيْرٌ من فضلِ العبادةِ، فإذا كان في العبدِ فَضْلَةٌ -زيادةٌ وبقيةٌ- كان صَرَفُها إلى العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ أفضلَ من صَرَفِها إلى مجرَّدِ العبادةِ.

فهذا فَصْلُ الْخِطَابِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ^(١).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٤).

الاغترار بالعلم داعية البطالة وترك العمل:

في رَصيدٍ دقيقٍ لهذه الظاهرة من ظواهرِ تعلُّقِ العلمِ بالعملِ يُظهر ابنُ الجوزيِّ -وهو عالمٌ من علماء القلوبِ الحاذقين- عَوَارَ أَقْوَامٍ وَسَمَهُمُ الْعِلْمُ بَوَسْمِهِ، وَلَمْ تَنْفُذْ بِشَاشَتِهِ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فَكَانَ الْعِلْمُ وَبَالًا عَلَيْهِمْ وَنَقْمَةً مَسُوقَةً إِلَيْهِمْ، وَاللَّهُ الْعَاصِمُ مِنَ الضَّلَالِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صِيدِ الْخَاطِرِ» (ص ٣٨٠): «رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَفَسَّحُونَ^(١) وَيَظُنُّونَ أَنَّ الْعِلْمَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ، وَمَا يَدْرُونَ أَنَّ الْعِلْمَ خَصْمُهُمْ، وَأَنَّهُ يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ^(٢)».

وَذَاكَ أَنَّ الْجَاهِلَ لَمْ يَتَعَرَّضْ بِالْحَقِّ، وَالْعَالِمَ لَمْ يَتَأَدَّبْ مَعَهُ.

وَرَأَيْتُ بَعْضَ الْقَوْمِ يَقُولُ: أَنَا قَدْ أَلْقَيْتُ مِنْجَلِي بَيْنَ الْحَصَادِينَ وَنَمْتُ، ثُمَّ يَنْفَسَحُ فِي أَشْيَاءَ لَا تَجُوزُ.

فَتَفَكَّرْتُ فَإِذَا الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الْحَقَائِقِ، وَالنَّظَرُ فِي سِيرِ الْقَدَمَاءِ وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِ الْقَوْمِ وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَمَا يَجِبُ لَهُ، لَيْسَ عِنْدَ الْقَوْمِ.

وَأِنَّمَا عِنْدَهُمْ صُورُ أَلْفَاظٍ يَعْرِفُونَ بِهَا مَا يَحُلُّ وَمَا يَحْرُمُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ. إِنَّمَا فَهْمُ الْأَصُولِ وَمَعْرِفَةُ الْمَعْبُودِ وَعَظَمَتِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ، وَالنَّظَرُ فِي سِيرِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِمْ، وَفَهُمْ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ -هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَدْعُ أَعْظَمَ

(١) يتوسعون في استعمال الرُّخص.

(٢) هذا من كلام الفضيل بن عياض، وكأنه للترهيب قيل. [الحلية؛ لأبي نعيم (٧/ ٢٨٦)].

العلماء أحقرَ عند نفسه من أجهل الجهال.
ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر، فبلغني أنه قال: قد عبدته عبادة ما عبده بها أحد، والآن قد ضعفت.

فقلت: ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سبباً لرد الكُل؛ لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئاً، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات، ففي حق نفسه فعل، وما مثله إلا كمثل من وقف يكدي^(١) فلا ينبغي أن يمتن على المعطي.

وإنما سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثل: صلة بن أشيم إذا رآه السبع هرب منه، وهو يقول إذا انقضى الليل عند صلاته: يا رب أجري من النار، أو مثلي يسأل الجنة؟^(٢).

وأبلغ من ذا قول عمر رضي الله عنه: وددت أن أنجو كفافاً لا لي ولا علي.
وقول سفيان عند موته لحماة بن سلمة: أترجو لمثلي أن ينجو من النار.
وقول أحمد: لا؛ بعد.

فأنا أحمد الله عز وجل إذ تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذمتهم، وبالزهد من هؤلاء الذين عبثهم، فإني قد أطلعت من عظمة الخالق وسير المحققين على ما يخرس لسان الانبساط، ويمحو النظر إلى كل فعل.

وكيف أنظر إلى فعلي المستحسن، وهو الذي وهب لي وأطلعني على ما خفي

(١) يكدي: يلح في المسألة.

(٢) انظر قصة صلة بن أشيم التي ذكرها ابن الجوزي في كتابه: «صفة الصفوة» (٢/ ١٢٩)، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩٧).

عن غيري؟! عن

فهل حَصَلَ ذلك بي أو بلطفه؟ وكيف أشكرُ توفيقِي للشكر؟

ثمَّ أيُّ عالمٍ إذا سَبَرَ أمورَ العلماءِ من القدماءِ لم يحتقر نفسه؟

هذا في صورة العلم، فدَع معناه.

وأيُّ عابدٍ يسمعُ بالعبادِ ولا يجري في صورة التَّعبُّد؟! فدَع المعنى.

نسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ معرفةً تعرَّفُنَا أقدارنا، حتى لا يبقى للعُجبِ بمحتقرٍ ما عندنا

أثرٌ في قلوبنا، ونرغبُ إليه في معرفةٍ لعظمته تُخرِسُ الألسنَ أن تنطقَ بالإدلالِ،

ونرجو من فضله توفيقًا نلاحظُ به آفاتِ الأعمالِ التي بها نزهو حتى تُثمرَ الملاحظةُ

لعيوبها الخجلَ من وجودها، إنَّه قريبٌ مجيبٌ». اهـ

«رَأَيْتُ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ مُشْتَغِلِينَ بِصُورَةِ الْعِلْمِ دُونَ فَهْمِ حَقِيقَتِهِ وَمَقْصُودِهِ.

فَالْقَارِئُ مُشْغُولٌ بِالرَّوَايَاتِ، عَاكِفٌ عَلَى الشَّوَادِ، يَرَى أَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْسُ

التَّلَاوَةِ، وَلَا يَتَلَمَّحُ عِظَمَةَ الْمُتَكَلِّمِ، وَلَا زَجَرَ الْقُرْآنِ وَوَعْدَهُ.

وَرَبَّيَا ظَنَّ أَنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَتَرَاهُ يَتَرَخَّصُ فِي الذُّنُوبِ، وَلَوْ فَهِمَ لَعَلِمَ

أَنَّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقْوَى مِمَّنْ لَمْ يَقْرَأَ.

وَالْمُحَدِّثُ يَجْمَعُ الطُّرُقَ، وَيَحْفَظُ الْأَسَانِيدَ، وَلَا يَتَأَمَّلُ مَقْصُودَ الْمَنْقُولِ، وَيَرَى أَنَّهُ

قَدْ حَفِظَ عَلَى النَّاسِ الْأَحَادِيثَ، فَهُوَ يَرْجُو بِذَلِكَ السَّلَامَةَ، وَرَبَّيَا تَرَخَّصَ فِي الْخَطَايَا

ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا فَعَلَ فِي الشَّرِيعَةِ يَدْفَعُ عَنْهُ.

وَالْفَقِيهُ قَدْ وَقَعَ لَهُ أَنَّهُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِنَ الْجِدَالِ الَّذِي يَقْوِي بِهِ خِصَامَتَهُ، وَالْمَسَائِلِ

الَّتِي قَدْ عَرَفَ فِيهَا الْمَذْهَبَ، قَدْ حَصَلَ بِهَا يُفْتِي بِهِ النَّاسَ مَا يَرْفَعُ قَدْرَهُ، وَيَمْحُو ذَنْبَهُ.

فربما هَجَمَ على الخطايا ظَنًّا منه أَنَّ ذلك يدفعُ عنه، وربَّما لم يحفظ القرآن ولم يعرف الحديثَ، وأنها ينهيان عن الفواحشِ بزجرٍ ورفقٍ، وينضاف إليه مع الجهلِ بهما حُبُّ الرياسةِ، وإيثارُ الغلبةِ في الجدَلِ، فتزیدُ قسوةَ قلبه.

وعلى هذا أكثرُ النَّاسِ، صورُ العلمِ عندهم صناعةٌ، فهي تُكسبهم الكبرَ والهماقةَ.

وقد حكى بعضُ المعتبرين عن شيخٍ أفنى عُمرَهُ في علومٍ كثيرةٍ، أَنَّهُ فُتِنَ في آخرِ عُمرِهِ بفسقٍ أصَرَ عليه، وبارَزَ الله به، وكانت حالُهُ بمضمونها: أَنَّ علمي يدفع عني شرًّا ما أنا فيه ولا يبقى له أثرٌ.

وكان كأنه قد قَطَعَ لنفسه بالنجاة، فلا يرى عنده أثرٌ لخوفٍ ولا نَدَمٍ على ذنبٍ.

قال: فتغيَّرَ في آخرِ عمرِهِ، ولازمه الفقرُ، فكان يلقي الشدائدَ، ولا ينتهي عن قُبْحِ حالِهِ، إلى أن جُمِعَتْ له يومًا قراراتٌ على سبيلِ الكُدِيَةِ^(١)، فاستحيا من ذلك، وقال: يا رب إلى هذا الحدُّ؟

قال الحاكي: فتعجَّبتُ من غَفَلَتِهِ كيف نسيَ الله وَجَلَّ، وأراد منه حُسْنَ التدبيرِ له، والصيانةَ، وسعةَ الرزقِ، وكأنَّه ما سمع قوله تعالى: ﴿وَالْوَاٰسِقُمْ أَلَىٰ الطَّرِيقَةِ لَاأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

ولا عَلِمَ أَنَّ المعاصي تُسَدُّ أبوابَ الرزقِ، وأنَّ من ضَيَّعَ أمرَ الله ضَيَّعَهُ الله.

فما رأيتُ علمًا ما أفاد كعلمِ هذا؛ لأنَّ العالمَ إذا زَلَّ انكسرَ، وهذا مُصِرٌّ لا تُؤْلِمُهُ

(١) الكُدِيَةُ: السَّوَالُ.

معصيته، وكأنّه يجوزُ له ما يفعلُ، أو كأنّ له التصرّف في الدّين تحليلاً وتحريراً!!
فمرّض عاجلاً، ومات على أقبح حالٍ.

قال الحاكبي: ورأيتُ شيخاً آخرَ حصَلَ صُورَ علمٍ، فما أفادته، كان أيُّ فسقٍ
أمكنه لم يتحاش منه، وأيُّ أمرٍ لم يُعجبه من القَدَرِ عارضهُ بالاعتراضِ على المقدّرِ
واللّومِ فعاش أكدرَ عيشٍ، وعلى أقبحِ اعتقادٍ حتّى درَج^(١).

وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلمُ صورَ الألفاظِ، إنّما المقصودُ فهمُ
المرادِ منه، وذلك يورث الخشية والخوفَ، ويُري المنّة للمنعم بالعلم، وقوّة الحجّة له
على المتعلّم.

نسأل الله يقظةً نفهمُنا المقصودَ، وتعرّفنا المعبودَ.

ونعوذُ بالله من سبيلِ رَعاعٍ يتسمون بالعلماء، لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون
ولا يعملون، ويتكبرون على النّاسِ بما لا يعلمون، ويأخذون عَرَضَ هذا الأدنى
وقد تُهوا عَمَّا يأخذون، غلبَتهم طباعهم، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم
أخسُّ حالاً من العوامِّ الذين يجهلون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]»^(٢).

جهلُ العمل:

جهلُ العملِ هو عدمُ العملِ على مقتضى الحقِّ النافع والعلمِ الرشيدِ.
وهذا سفيانُ بنُ عُيينة رَحِمَهُ اللهُ يَعِظُ خَلاد بن يزيد الأرقط، وكان أبو زيدٍ عمرُ

(١) درَج: مات.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٥٤٤).

ابن شبة إذا ذَكَرَ خَلادًا قال: كان من الجبال الرواسي نُبالًا؛ يَصِفُ جلالته ونُبْلَهُ.

قال خلاد: أتيتُ سفيانَ بن عيينة فقال: «إنَّما يأتي بك الجهلُ لا ابتغاءُ العلمِ، لو اقتصر جيرانُك على علمك كفاهم، ثمَّ كَوِّمَ كومةً من بطحاءٍ ثمَّ شَقَّها بأصبعه ثمَّ قال: هذا العلمُ أخذتَ نصفه، ثمَّ جئتَ تبتغي النصفَ الباقي، فلو قيل: أرايتَ ما أخذتَ هل استعملته؟ فإذا صدقتَ قلتَ: لا، فيقالُ لك: ما حاجتُك إلى ما تزيد به نفسك وقرًّا على وقرِّ؟ استعمل ما أخذتَ أوَّلًا»^(١).

فالسَّلَفُ -رحمهم الله تعالى- يذُمُّونَ جهَلَ العملِ ذَمًّا شديدًا، ويحذِّرونَ من علماء السُّوءِ الذين لهم ظاهرٌ يَغُرُّ وباطنٌ يَضُرُّ، ويفيضون في رميمهم بكل نقيصَةٍ وتهمةٍ، ويضربون لهم الأمثالَ.

وهذا وهيبُ بن الوردِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يضربُ المثلَ فيقول: «مَثَلُ عَالِمِ السُّوءِ كَمَثَلِ حَجَرٍ دُفِعَ فِي سَاقِيَةٍ فلا هو يشربُ من الماءِ، ولا هو يُخْلِي عن الماءِ فيحيا به الشجرُ، ولو أنَّ علماءَ السُّوءِ نصَّحوا الله في عبادِهِ فقالوا: يا عبادَ الله، اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم، وصالحِ سلفكم، فاعملوا به، ولا تنظروا إلى أعمالنا فإنَّا مفتونون، كانوا قد نصَّحوا الله في عبادِهِ، ولكنهم يريدون أن يدعُوا عبادَ الله إلى أعمالهم القبيحة فيدخلوا معهم فيها»^(٢).

هذا هو شأنُ العلمِ، إن لم يتحقَّقْ منه النفعُ، استُجِلِبَ به الضُّرُّ، كما قال سفيانُ ابنُ عُيينَةَ: «العلمُ إن لم ينفعك ضَرَّكَ»، يقولُ الخطيبُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شارحًا ومفسِّرًا:

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص ٨٤).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» (ص ٦٧).

يعني إن لم ينفعه بأن يعمل به، ضَرَّه بكونه حِجَّةً عليه^(١).

وتوضَّحُ حكمة «مالك بن دينار» الأمر، إذ يقول: إني وجدتُ في بعضِ الحكمة: لا خيرَ لك أن تعلمَ ما لم تعلم ولم تعمل بما قد علمت؛ فإنَّ مثْلَ ذلك مثْلُ رجلٍ احتطبَ حطبًا، فحَزَمَ حُزْمَةً ذَهَبَ يَحْمِلُهَا فَعَجَزَ عنها، فَضَمَّ إليها أخرى^(٢).

وأحرى بِمَنْ مَنَّ الله عليه بالانتسابِ إلى العلم، أن يكونَ مَحَبَّتًا لله قانتًا، وأن يكونَ بعلمِهِ عاملاً، وأن يدَعَ الغفلةَ جانبًا، وأن يجتهدَ في أن ينسلخَ من جهله بعدمِ مواقفِ السيئاتِ؛ إذ السيئاتُ أصلُها الجهلُ، وهو إلى العلمِ منتسبٌ.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «أما السيئاتُ فمَنْشُؤُها الجهلُ والظلمُ، فإنَّ أحدًا لا يفعلُ سيئةً قبيحةً إلا لعدمِ علمِهِ بكونها سيئةً قبيحةً، أو لهواه وميلِ نفسه إليها، ولا يتركُ حسنةً واجبةً إلا لعدمِ علمِهِ بوجوبها، أو لبغضِ نفسه لها.

وفي الحقيقة: فالسيئاتُ كُلُّها ترجعُ إلى الجهلِ، وإلا فلو كان عالِمًا بأنَّ فعلَ هذا يضرُّه ضررًا راجحًا، لم يفعلْه، فإنَّ هذا خاصيَّةُ العاقلِ، ولهذا إذا كان من الحسناتِ ما يعلمُ أنَّه يضرُّه ضررًا راجحًا؛ كالسقوطِ من مكانٍ عالٍ، أو في نهرٍ يُغرِّقُهُ، أو المرورِ بجانبِ حائطٍ مائلٍ، أو دخولِ نارٍ مُتَأَجِّجَةٍ، أو رميِ ماله في البحرِ ونحو ذلك؛ لم يفعلْه، لعلمِهِ بأنَّ هذا ضررٌ لا منفعةَ فيه.

ومَنْ لم يعلم أنَّ هذا يضرُّه، كالصبي، والمجنون، والسَّاهي، والغافل، فقد يفعل ذلك.

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص ٥٦).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» (ص ٥٧).

وَمَنْ أَقْدَمَ عَلَى مَا يُضُرُّهُ - مع علمه من الضرر عليه - فَلِظَنِّهِ أَنْ مَنْفَعَتَهُ رَاجِحَةٌ،
فَإِمَّا أَنْ يَجْزَمَ بِضَرِّ مَرْجُوحٍ، أَوْ يَظُنَّ أَنَّ الْخَيْرَ رَاجِحٌ، فَلَا بُدَّ مِنْ رَجْحَانِ الْخَيْرِ، إِمَّا
فِي الظَّنِّ وَإِمَّا فِي الْمُظَنُّونَ؛ كَالَّذِي يَرْكَبُ الْبَحْرَ وَيَسَافِرُ الْأَسْفَارَ الْبَعِيدَةَ لِلرِّيحِ فَإِنَّهُ لَوْ
جَزَمَ بِأَنَّهُ يَغْرُقُ أَوْ يَخْسِرُ لَمَّا سَافَرَ، لَكِنَّهُ يَتَرَجَّحُ عِنْدَهُ السَّلَامَةُ وَالرِّيحُ، وَإِنْ كَانَ مَخْطِئًا
فِي هَذَا الظَّنِّ.

وكذلك الذنوب: إِذَا جَزَمَ السَّارِقُ بِأَنَّهُ يُؤْخَذُ وَيُقَطَّعُ، لَمْ يَسْرِقْ، وَكَذَلِكَ
الزَّانِي: إِذَا جَزَمَ بِأَنَّهُ يُرْجَمُ، لَمْ يَزِنْ، وَالشَّارِبُ يَخْتَلِفُ حَالُهُ، فَقَدْ يُقَدِّمُ عَلَى جِلْدِ
أَرْبَعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ، وَيُدِيمُ الشُّرْبَ مَعَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ: أَنَّ عَقُوبَةَ الشَّارِبِ
غَيْرُ مُحَدَدَةٍ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْقَتْلِ، إِذَا لَمْ يَنْتَهِ إِلَّا بِذَلِكَ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ
الْأَحَادِيثُ.

وكذلك العقوبات: مَتَى جَزَمَ طَالِبُ الذَّنْبِ بِأَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ الضَّرَرُ الرَّاجِحُ
لَمْ يَفْعَلْهُ، بَلْ إِمَّا أَلَّا يَكُونَ جَازِمًا بِتَحْرِيمِهِ، أَوْ يَكُونَ غَيْرَ جَازِمٍ بِعَقُوبَتِهِ، بَلْ يَرْجُو
الْعَفْوَ بِحَسَنَاتٍ، أَوْ تَوْبَةٍ، أَوْ بِعَفْوِ اللَّهِ، أَوْ يَغْفُلُ عَنْ هَذَا كُلِّهِ، وَلَا يَسْتَحْضِرُ تَحْرِيمًا،
وَلَا وَعِيدًا، فَيَبْقَى غَافِلًا، غَيْرَ مُسْتَحْضِرٍ لِلتَّحْرِيمِ، وَالْغَفْلَةُ مِنْ أَضْدَادِ الْعِلْمِ.

فَالْغَفْلَةُ وَالشَّهْوَةُ أَصْلُ الشَّرِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

والهوى وحده لَا يَسْتَقِلُّ بِفِعْلِ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَعَ الْجَهْلِ، وَإِلَّا فَصَاحِبُ الْهَوَى
إِذَا عَلِمَ قَطْعًا أَنَّ ذَلِكَ يَضُرُّهُ ضَرَرًا رَاجِحًا؛ انصرفت نَفْسُهُ عَنْهُ بِالطَّبْعِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
جَعَلَ فِي النَّفْسِ حُبًّا لِمَا يَنْفَعُهَا، وَبُغْضًا لِمَا يَضُرُّهَا، فَلَا تَفْعَلُ مَا تَجْزَمُ بِأَنَّهُ يَضُرُّهَا

ضرراً راجحاً، بل متى فعلته كان لضعف العقل، ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان، لا من مجرد النفس، فإن الشيطان يُزَيِّنُ لها السيئات، ويأمرها بها، ويذكر لها ما فيها من المحاسن؛ التي هي منافع لا مضار، كما فعل إبليس بآدم وحواء، فقال: ﴿يَكَادُمُ هَلْ أَذُكُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ ﴿١٣٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا ﴿طه: ١٢٠-١٢١﴾، ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

فأصل ما يُوقع النَّاسَ في السيئات: الجهل، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً أو ظناً أنها تنفعهم نفعاً راجحاً.

ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: «كُلُّ مَنْ عصى الله فهو جاهل»، وفسروا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ولهذا يسمَّى حال فعل السيئات جاهلية، فإنه يصاحبها حال من الجاهلية.

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، فقالوا: كُلُّ مَنْ عصى الله فهو جاهل، ومن تاب قبيل الموت، فقد تاب من قريب.

وعن قتادة قال: أجمع أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كُلَّ مَنْ عصى الله

رَبُّهُ فَهُوَ فِي جَهَالَةٍ، عَمْدًا كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَكَذَلِكَ قَالَ التَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: مَنْ عَمِلَ ذَنْبًا - مِنْ شَيْخٍ أَوْ شَابٍّ - فَهُوَ بِجَهَالَةٍ.

وَقَالَ: مَنْ عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَقَالَ أَيْضًا: هُوَ إِعْطَاءُ الْجَهْلِ الْعَمْدَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: مَنْ عَمِلَ سُوءًا خَطَأً أَوْ إِثْمًا عَمْدًا، فَهُوَ جَاهِلٌ حَتَّى يَنْزِعَ

منه.

وَرُوي عَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ قَالَا: لَيْسَ مِنْ جَهَالَتِهِ أَلَّا يَعْلَمَ حَلَالًا وَلَا حَرَامًا؛

وَلَكِنْ مِنْ جَهَالَتِهِ حِينَ دَخَلَ فِيهِ.

وَقَالَ عِكْرَمَةُ: الدُّنْيَا كُلُّهَا جَهَالَةٌ.

وَعَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْهَا - أَيُّ: الْآيَةِ - فَقَالَ: هُمْ قَوْمٌ لَمْ يَعْلَمُوا مَا

لَهُمْ مِمَّا عَلَيْهِمْ، قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانُوا قَدْ عِلِمُوا؟ قَالَ: فَلْيُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِنَّهَا

جَهَالَةٌ.

قُلْتُ: وَمِمَّا بَيَّنُّ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:

٢٨]، وَكُلُّ مَنْ خَشِيَهِ، وَأَطَاعَهُ، وَتَرَكَ مَعْصِيَتَهُ، فَهُوَ عَالِمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ

قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال رجلٌ للشعبيّ: أيُّها العالمُ، فقال: إنّما العالمُ مَنْ يخشى الله.
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، يقتضي أنّ كلّ مَنْ خشي الله
 فهو عالمٌ؛ لأنّه لا يخشاه إلا عالمٌ، ويقتضي أيضًا: أنّ العالمَ مَنْ يخشى الله كما قال
 السلفُ.

قال ابن مسعودٍ: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار به جهلاً.
 ومثّل هذا الحصرَ يكون من الطرفين، حصر الأول في الثاني، وهو مطرّدٌ، وحصر
 الثاني في الأول نحو قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾
 [يس: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ
 بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾
 ﴿١٥﴾ نَتَجَاوَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴿[السجدة: ١٥-١٦]﴾.

ومن ذلك:

أنّه أثبت الخشية للعلماء، ونفاها عن غيرهم، وهذا كاستثناء، فإنّه من النفي
 إثباتٌ عند جمهور العلماء، كقولنا: «لا إله إلا الله» وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا
 لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فإذا كان العلمُ يوجبُ الخشيةَ الحاملةً على فعلِ الحسناتِ،
 وتركِ السيئاتِ، وكلُّ عاصٍ فهو جاهلٌ ليس بتأمّ العلم، تبيّن ما ذكرنا من أنّ أصلَ
 السيئاتِ الجهلُ، وعدمُ العلمِ^(١).

(١) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية (ص ٥٩)، وانظر: ذم الجهل، لمحمد بن سعيد بن رسلان، باب:
 بيان جهل العمل.

الْخُلَاصُ فِي الْإِخْلَاصِ، وَإِنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَنْ لَمْ يُخْلِصْ؛

كما ينبغي أن يكون العلم -تخصيلاً وجمعاً- لله خالصاً، كذلك ينبغي أن يكون العمل -أداءً وفعلًا- لله خالصاً، لأنَّ الله تعالى طيّبٌ لا يقبل من العمل إلا ما كان طيباً وأريد به وجهه.

«ينبغي أن يكون العمل كله لله، ومعه، ولأجله.

وقد كفاك كل مخلوق وجلب لك كل خير.

وإياك أن تميل عنه بموافقة هوى وإرضاء مخلوق، فإنَّه يعكس عليك الحال، ويفوتك المقصود.

وفي الحديث: «مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بَسَخَطَ اللَّهُ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَمَنْ أَسَخَطَ النَّاسَ بَرَضَا اللَّهُ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْنَةَ النَّاسِ»^(١).

وأطيب العيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه.

فإن قيل: كيف يعيش معه؟

قلت: بامتنال أمره، واجتناب نهيه، ومراعاة حدوده، والرضا بقضائه، وحسن الأدب في الخلوة، وكثرة ذكره، وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره.

فإن احتجت سألته، فإن أعطى وإلا رضيت بالمنع، وعلمت أنه لم يمنع بخلاً

وإنما نظراً لك.

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها. «صحيح الجامع» رقم (٥٨٨٦) وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٢٣١١).

ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبَّد به، ومتى دُمْتَ على ذلك رزقك محبَّته
وصدق التوكُّل عليه، فصارت المحبَّة تدلُّك على المقصود، وأثمرت لك محبَّته إياك،
فحينئذٍ تعيش عيش الصديقين.

ولا خير في عيشٍ إن لم يكن كذا، فإنَّ أكثر النَّاسِ مخبَّطٌ في عيشه، يُداري
الأسبابَ، ويميلُ إليها بقلبه، ويتعبُّ في تحصيل الرزقِ بحرصٍ زائدٍ على الحدِّ،
وبرغبةٍ إلى الخلق، ويعترض عند انكسار الأغراض.

والقدَّرُ يجري ولا يبالي بسخطٍ، ولا يحصلُ له إلا ما قُدِّرَ.
وقد فاتهُ القُربُ من الحقِّ والمحبَّةُ له، والتأدُّبُ معه، فذلك العيش عيشُ
البهائم»^(١).

قال مالكُ بن دينارٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ العالمَ إذا لم يعمل بعلمِهِ زَلَّتْ موعظتُهُ عن
القلوبِ كما يزلُّ القطرُ عن الصِّفَا».

وكان سَوَّارٌ يقول: «كلامُ القلبِ يقرعُ القلبَ، وكلامُ اللسانِ يمرُّ على القلبِ
صَفْحًا».

وقال زيادٌ: «إذا خرج الكلامُ من القلبِ وَقَعَ في القلبِ، وإذا خرج من اللِّسانِ
لم يجاوز الآذانَ».

وقال بعضُ الحكماءِ: «إذا كانت حياتي حياةَ السَّفيه، وموتي موتَ الجاهلِ، فما
يُغني عني ما جمعتُ من غرائبِ الحكمة».

(١) «صيد الخاطر» (ص ٥٦٣).

وقال الحسن بن آدم: «ما يغني عنك ما جمعت من حكمة الحكماء وأنت تجري في العمل مجرى السفهاء».

وقال عبد الملك بن إدريس الحزيري الوزير الكاتب:

والعلم ليس بنافع أربابهُ ما لم يُفدَ عملاً وحسنَ تبصُرِ
سيانَ عندي علمٌ من لم يستفد عملاً به وصلاةً من لم يطهرِ
فاعمل بعلمك تُوفِ نفسك وزنها لا ترض بالتضييع وزنَ المخسرِ

وأشيد أحمد بن محمد بن مسروق:

إذا كنت لا ترتأب أنك مَيِّتٌ ولست بعد الموت تسعى وتعملُ
فعلمك ما يجدي وأنت مُفَرِّطٌ وذكرُك في الموتى مُعَدُّ مُحَصَّلُ

وقال منصور بن إسماعيل الفقيه:

إذا كنت تعلم أن الفِرا ق فراق الحياة قريبٌ قريب
وأنَّ المُعَدَّ جهَّازَ الرِّحيلِ ليومِ الرِّحيلِ مُصِيبٌ مُصِيب
وأنَّ المُقَدَّم ما لا يَفُو تُ على ما يَفُوتُ مَعِيبٌ مَعِيب
وأنت عن ذاك لا ترعوي فأمرُك عندي عَجِيبٌ عَجِيب

وقال الحسن رحمه الله: «الذي يفوق النَّاس في العلم جديرٌ أن يفوقهم في العمل».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «قال لي ابن المبارك: أكثركم علماً ينبغي أن يكون أكثركم خوفاً».

وعن الحسن في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]،

قال: «عَلَّمْتُمْ ولم تعملوا، فوالله ما ذلكم بعلم».

وقال أيوبُ السخيتانيُّ: «قالَ لي أبو قلابَةَ: يا أيوبُ إذا أَدَّثَ اللهُ لكَ علماً فأحدث له عبادَةً، ولا يكن هَمَّكَ أن تحدثَ به».

وقال عليُّ بن الحسين: «كان نقشُ خاتمِ حسين بن عليٍّ: عَلِمْتَ فاعْمَلْ».

وعن مالك بن مغولٍ في قولهِ تعالى: ﴿فَبَدَّوْهُ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

قال: تركوا العملَ به.

وقال الحسنُ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلَانِ: رَجُلٌ نَظَرَ إِلَى مَالِهِ فِي مِيزَانٍ غَيْرِهِ سَعِدَ بِهِ وَشَقِيَ هُوَ بِهِ، وَرَجُلٌ نَظَرَ إِلَى عِلْمِهِ فِي مِيزَانٍ غَيْرِهِ سَعِدَ بِهِ وَشَقِيَ هُوَ بِهِ^(١).

ألا وإنَّ من جملةِ العملِ بالعلمِ أن يقومَ العالمُ ببثِّه ويتوقَّرَ على نشرهِ وإذاعتهِ، وقد بلغ العلماءُ في هذا المسلكِ مبالغَ عظيمةً جداً، فرحمةُ الله تعالى عليهم أجمعين.

وهذا مثلٌ قريبٌ؛ لأنَّ الإمامَ الشوكانيَّ رَحِمَهُ اللهُ تُوِّفِيَ سَنَةً خَمْسِينَ وَمِئَتِينَ وَأَلْفٍ مِنَ الْمُهْجَرَةِ، وقد كان رَحِمَهُ اللهُ مُسْتَفْرِغاً طاقتهِ كُلَّهَا فِي التَّعْلُمِ وَبَثِّ الْعِلْمِ وَإِذَاعَتِهِ، بحيثُ يعجبُ المرءُ كيف يتسعُ زمانٌ لمثلِ هذا، ولكنها بركةُ الله تعالى تشملُ الأزمانَ كما تشملُ الأمكنةَ وتشملُ الأحياءَ.

وقد ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ مسموعاتهِ ومقروءاتهِ على شيوخه، وهي جملةٌ وافرةٌ، ثم ذكر ما أُجِيزَ به من الشيوخِ إجمالاً وقال: إِنَّهَا لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ كَمَا يَحْكِي ذَلِكَ مَجْمُوعُ أَسَانِيدِهِ.

(١) انظر هذه الآثار في «جامع بيان العلم» (٨/٢).

قال رَحِمَهُ اللهُ فِي تَرْجُمَتِهِ لِنَفْسِهِ: «وَقَدْ دَرَسَ فِي جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ وَأَخَذَهُ عَنْهُ الطَّلَبَةُ، وَتَكَرَّرَ أَخْذُهُمْ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْرَأُ عَلَى مَشَايخِهِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابٍ أَخَذَهُ عَنْهُ تَلَامِذُتُهُ: بَلِ اجْتَمَعُوا عَلَى الْأَخْذِ عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ عَلَى شَيْخِهِ.

وَكَانَ يَبْلُغُ دُرُوسُهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ إِلَى نَحْوِ ثَلَاثَةِ عَشَرَ دَرْسًا، مِنْهَا مَا يَأْخُذُهُ عَنْ مَشَايخِهِ، وَمِنْهَا مَا يَأْخُذُهُ عَنْهُ تَلَامِذُتُهُ، وَاسْتَمَرَ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً حَتَّى لَمْ يَبْقَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ شُيُوخِهِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جُمْلَةٍ مَا قَدْ قَرَأَهُ، بَلِ انْفَرَدَ بِمَقْرُوءَاتٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى انْفِرَادِهِ، إِلَّا شَيْخَهُ الْعَلَامَةَ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ أَحْمَدَ فَإِنَّهُ مَاتَ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ اسْتَوْفَى مَا عِنْدَهُ.

ثُمَّ إِنَّ صَاحِبَ التَّرْجُمَةِ -أَي: الشُّوْكَانِيَّ- فَرَّغَ نَفْسَهُ لِإِفَادَةِ الطَّلَبَةِ، فَكَانُوا يَأْخُذُونَ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ زِيَادَةً عَلَى عَشْرَةِ دُرُوسٍ فِي فَنُونٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَاجْتَمَعَ فِيهَا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ:

التفسيرُ، والحديثُ، والأصولُ، والنحوُ، والصرفُ، والمعاني، والبيانُ، والمنطقُ، والفقهُ، والجَدَلُ، والعروضُ.

وَكَانَ فِي أَيَّامِ قِرَاءَتِهِ عَلَى الشُّيُوخِ وَإِقْرَائِهِ لِتَلَامِذِهِ يُفْتِي أَهْلَ صَنْعَاءَ، بَلْ وَمَنْ وَفَدَ إِلَيْهَا، بَلْ تَرَدُّ الْفُتَاوَى مِنَ الدِّيَارِ التَّهَامِيَّةِ، وَشُيُوخُهُ إِذْ ذَاكَ أَحْيَاءُ، وَكَادَتْ الْفُتْيَا تَدُورُ عَلَيْهِ مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ وَخَاصَّتِهِمْ، وَاسْتَمَرَ يُفْتِي مِنْ نَحْوِ الْعَشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ لَا يَأْخُذُ عَلَى الْفُتْيَا شَيْئًا تَنْزُّهَاً، فَإِذَا عُوتِبَ فِي ذَلِكَ قَالَ: أَنَا أَخَذْتُ الْعِلْمَ بِلَا ثَمَنِ فَأَرِيدُ إِنْفَاقَهُ كَذَلِكَ.

وأخذ عنه الطلبة كتباً غير الكتب المتقدمة، أي: التي ذكرها قراءةً على شيوخه ممّا لا طريق له فيها إلا الإجازة، وهي كثيرة جداً في فنون عدّة، بل أخذوا عنه في فنون دقيقة لم يقرأ في شيء منها كعلم الحكمة التي منها: علم الرياضي، والطبيعي، والإلهي، وكعلم الهيئة، وعلم المناظر، وعلم الوضع، وصنّف تصانيف مطوّلات ومختصرات^(١).

وقد قدّمت الشوكانيّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الذِّكْرِ لِقُرْبِ زَمَانِهِ مِنْ زَمَانِنَا، وَحَتَّى لَا يَحْتَجَّ أَحَدٌ بِمَضِيِّ زَمَانِ الْهَمَمِ السَّوَابِقِ، وَانْقِطَاعِ زَمَانِ السَّبْقِ، وَالنَّبُوغِ، وَإِلَّا فَإِنْ كَثُرًا مَن تَقَدَّمَ الشُّوكَانِيُّ مِنْ عُلَمَائِنَا، كَانُوا أَعْلَى هِمَّةً وَأَرْفَعَ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ هَامَةً.

فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية متوفراً على العبادة والعلم والإفادة لا يقطعه عن ذلك قاطع، ولا يشغله عنه شاغل، حتى أفضى إلى ربّه، رحمة الله عليه.

قال في «العلماء العزّاب» (ص ١٠٧): «قال الذهبيّ عنه: لم يتزوَّج ولا تسرّى، ولا كان له من المعلوم إلا شيء قليل^(٢)، وكان أخوه يقوم بمصالحه، وكان لا يطلب منهم غداءً ولا عشاءً غالباً، وما كانت الدنيا منه على بال».

ومع علوّ كعبه في العلم فقد كان في العمل طويلاً الباع جدّاً، ذا تعبٍ وإنابة وخشوع، وقد كان كما قال الأئمة الناقلون عنه: قَلَّ أَنْ سَمِعَ بِمِثْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ قَدْ قَطَعَ جُلَّ وَقْتِهِ وَزَمَانِهِ فِي الْعِبَادَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ شَاغِلَةً تَشْغُلُهُ عَنْ اللَّهِ وَمَا يُزَاوِلُهُ، لَا مِنْ أَهْلِ وَلَا مِنْ مَالٍ، وَكَانَ فِي لَيْلِهِ مُنْفَرِّدًا عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ خَالِيًا بِرَبِّهِ وَجَلَدًا، ضَارِعًا

(١) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٢١٨).

(٢) يقصدون بالمعلوم: الراتب الذي يُرتفق به من بيت المال.

إليه، مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم مكرّرًا لأنواع التعبّاتِ الليلية والنهارية، وكان إذا دخل الصلاة ترتعد فرائضه وأعضاؤه.

وكان إذا رأى في طريقه منكرًا أزاله، أو سمع بجنّازة سارع للصلاة عليها، أو تأسّف على فواتها، ولا يزال تارةً في إفتاء الناس، وتارةً في قضاء حوائجهم حتى يصلي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقيه يومه، وكان مجلسه عامًّا للكبير والصغير والجليل والحقير، ويرى كلّ منهم في نفسه أنّه لم يكرم أحدًا بقدره، ثمّ يصلي المغرب وتقرأ عليه الدروس، ثمّ يصلي العشاء، ثمّ يقبل على العلوم إلى أن يذهب طويل من الليل، وهو في خلال ذلك كله الليل والنهار لا يزال يذكر الله تعالى ويوحّده ويستغفره.

وقد كان من الغاية التي يُنتهي إليها في الورع أنّ الله تعالى أجراه مُدّة عُمره كلّها على الورع، فإنّه ما خالط الناس في بيع ولا شراء، ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة، ولا مزارعة، ولا عمارة، ولا كان ناظرًا ولا مباشرًا للمال وقف، ولم يقبل جريّة ولا صلة لنفسه من سلطان، ولا أمير، ولا تاجر، ولا كان مُدخّرًا دينارًا ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا، وإنما كانت بضاعته مُدّة حياته، وميراثه بعد وفاته رحمه الله تعالى، العلم، اقتداءً بسيد المرسلين ﷺ، فإنّه قال: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلَكِنْ وَرَثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ»^(١).

وقد جعل الله الزهد شعاره من صغره، واتفق كل من رآه، خصوصًا من مال

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترغيب» (١/٣٣).

إلى ملازمته، أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا، واشتهر عنه ذلك حتى لو سُئِلَ عاميٌّ من أهل بلد بعيدٍ: مَنْ أزهّدُ أهل هذا العصرِ وأكملهم في رَفَضِ فضولِ الدنيا، وأحرصهم على طَلَبِ الآخرة؟ لقال: ما سمعتُ بمثل ابن تيمية.

وما اشتهر بذلك إلا لمبالغته في الزهد مع تصحيح النية؛ لم يُسمع أنه حرص على دينارٍ ولا درهمٍ، ولا رَغِبَ في دوابٍّ ولا نَعَمٍ، ولا ثيابٍ فاخرةٍ ولا حَشَمٍ، ولا زاحمٍ في طَلَبِ الرياساتِ، ولا رؤي ساعياً في تحصيلِ المباحاتِ، مع أن الملوكَ والأمراءَ والتجارَ والكبراءَ كانوا طَوَّعَ أمرِهِ خاضعين لقوله، وأدَّين أن يتقَرَّبوا إلى قلبه مهما أمكنهم، مظهرين لإجلاله، فأين حاله هذا من حال مَنْ أغراههم الشيطانُ بالوقعةِ فيه، أما نظروا ببصائرهم إلى صفاتهم وصفاته، وسماتهم وسماته، وتحاسدهم في طَلَبِ الدنيا وفراغِ عنها، ومبالغته في الهربِ منها، وخدمتهم للأمراءِ واختلافهم إلى أبوابهم، وذُلُّ الأمرِ بين يديه وعدم اكتراثِهِ بهم، وقوة جأشِهِ في محاوراتهم؟ بلى والله، ولكن قتلتهم الحالقةُ الدين، لا حالقةُ الشعرِ.

وقد كان رَحِمَهُ اللهُ مع رَفَضِهِ للدنيا وتَقَلُّبِهِ منها: مُؤَثِّراً بما عساه يجده منها قليلاً كان أو كثيراً، لا يحتقر القليلَ فيمنعه ذلك عن التصديق به، ولا الكثيرَ فيصرفه النظرُ إليه عن الإسعافِ به، فقد كان يتصدَّقَ حتَّى إذا لم يجد شيئاً نَزَعَ بعضَ ثيابه فيصِلُ به الفقراءَ، وكان يستفضِلُ من قوته الرغيفَ والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه.

وكان رَحِمَهُ اللهُ متوسطاً في لباسِهِ لا يلبس فاخرَ الثيابِ بحيث يُرْمَقُ ويُمدُّ النظرُ إليه، ولا أطهاراً ولا غليظةً تشهرُ لابسها من عالمٍ أو عابِدٍ، بل كان لباسُهُ وهَيْئَتُهُ كغالبِ النَّاسِ ومتوسطيهم، ولم يكن يلبس نوعاً واحداً من اللباسِ، بل يلبس ما

اتفق وحصل، ويأكل ما حَصَرَ، وكانت بذادة الإيمان عليه ظاهرة، لا يرى متصنعا في عمامة ولا لباس، ولا مشية ولا قيام ولا جلوس، ولم يُسمع أنه أمر أن يتخذ له ثوب بعينه، بل كان أهله يأتون بلباسه وقت حاجته لبدل ثيابه التي عليه، وربما اتسخت ولا يأمر بغسلها حتى يسأله أهله ذلك، وكذا كان في المأكَل، فما سُمع أنه طلب طعاما قط ولا عشاء ولا غداء، ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من العلم والعمل، بل كان ربما يُؤتى بالطعام وربما يترك عنده فيبقى زمانا حتى يلتفت إليه، وإذا أكل يأكل شيئا يسيرا، وما ذكر من ملأ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها، بل جُلَّ همُّه وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى.

وكان مع علو كعبه ورفعة مقامه جَمَّ التواضع، ما سُمع بأحد من أهل عصره مثله رَحِمَهُ اللهُ في ذلك، فكان يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والفقير، ويدنيه ويكرمه ويباسطه بحديث زيادة عن الغني، حتى إنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرا لقلبه، وكان لا يسأم ممن يستعبه أو يسأله، بل يُقبل عليه ببشاشة وجهٍ ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه، ولا يجبهه ولا يتفوه بكلام يوحشه، بل يُجيبه ويُفهمه، ويُعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط، وكان يلزم التواضع في حضوره مع الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ومشيه ومجلسه وغيره.

وأما شجاعته وجهاده أعداء الإسلام فأمر متجاوز للوصف، وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أمورا من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها، وقالوا: لقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره.

وكان من شجاعته في مواقف الحروبِ نوبةُ «شقحب» سنة اثنتين وسبعمئة، ونوبةُ «كسروان» ما لم يُسمع إلا عن صناديد الرجال، وشجعان الأبطال، فكان تارةً يباشر القتال، وتارةً يحرّض عليه قائماً بسلاحه يوصي الناس بالثبات، ويعدّهم بالنصر ويبشّرهم بالغنيمة^(١). اهـ

ألا إنّ ثمرة العمل بالعلم لعظيمة القدر، جليلة المقدار.

ولقد عدّ علماؤنا العلم الممدوح في الكتاب والسنة والمعتبر شرعاً هو ما أثمر عملاً، وأمّا ما لم يثمر عملاً فليس بعلم عندهم.

قال الشاطبي رحمه الله: «العلم الذي هو العلمُ المعْتَبَرُ شرعاً - أعني الذي مدح الله ورسوله ﷺ أهلُه على الإطلاق - هو العلمُ الباعثُ على العمل، الذي لا يُكَلِّي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيّد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً.

ومعنى هذه الجملة أنّ أهل العلم في طلبه وتحصيله على ثلاث مراتب:

* المرتبة الأولى: الطالبون له ولَمَّا يحصلوا على كماله بعد، وإنما هم في طلبه في رتبة التقليد، فهؤلاء إذا دخلوا في العمل به؛ فبمقتضى الحمل التكليفي، والحثّ الترغيب والترهيب، وعلى مقدار شدة التصديق يخفّ ثقل التكليف، فلا يكتفي العلم هاهنا بالحمل دون أمر آخر خارج مَقُولِهِ، من زجرٍ أو قِصاصٍ، أو حدٍّ، أو تعزيزٍ، أو ما جرى هذا المجرى، ولا احتياج هاهنا إلى إقامة برهانٍ على ذلك؛ إذ التجربة الجارية في

(١) «غاية الأمان» لمحمود شكري الألوسي (٢ / ١٧١).

الحَلَقِ قد أعطت في هذه المرتبة برهاناً لا يحتمل متعلّقه النقيض بوجه.

* **والمرتبة الثانية:** الواقفون منه على براهينه، ارتفاعاً عن حضيض التقليد المجرد، واستبصاراً فيه، حسبما أعطاه شاهد النقل الذي يصدّقه العقل تصديقاً يطمئن إليه، ويعتمد عليه، إلا أنّه بعدُ منسوبٌ إلى العقل لا إلى النفس، بمعنى أنّه لم يَصِرْ كالوصف الثابت للإنسان، وإنما هو كالأشياء المكتسبة، والعلوم المحفوظة، التي يتحكم عليها العقل، وعليه يعتمد في استجلابها، حتى تصير من جملة مودعاته، فهؤلاء إذا دخلوا في العمل، خفّ عليهم خفّة أخرى زائدة على مجرد التصديق في المرتبة الأولى، بل لا نسبة بينهما، إذ هؤلاء يأبى لهم البرهان المصدّق أن يكذبوا، ومن جملة التكذيب الخفي: العمل على مخالفة العلم الحاصل لهم، ولكنهم حين لم يَصِرْ لهم كالوصف، ربما كانت أوصافهم الثابتة من الهوى والشهوة الباعثة الغالبة أقوى الباعثين، فلا بد من الافتقار إلى أمر زائد من خارج، غير أنّه يتسع في حقهم، فلا يقتصر فيه على مجرد الحدود والتعزيرات، بل ثمّ أمورٌ أخرى كمحاسن العادات، ومطالبة المراتب التي بلغوها بما يليق بها، وأشبه ذلك.

وهذه المرتبة أيضاً يقوم البرهان عليها من التجربة، إلا أنّها أخفى ممّا قبلها، فيحتاج إلى فضلٍ نظرٍ موكولٍ إلى ذوي النباهة في العلوم الشرعية، والأخذ في الاتّصافات السلوكية.

* **والمرتبة الثالثة:** الذين صار لهم العلم وصفاً من الأوصاف الثابتة، بمثابة الأمور البديهية في المعقولات الأولى، أو تقاربها، ولا يُنظرُ إلى طريق حصولها، فإنّ ذلك لا يحتاج إليه، فهؤلاء لا يُخلّيه العلم وأهواءهم إذا تبيّن لهم الحق، بل يرجعون إليه

رجوعهم إلى دواعيهم البشرية، وأوصافهم الخلقية، وهذه المرتبة هي المترجم لها.
والدليل على صحتها من الشريعة كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْهُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، فنسب هذه المحاسن إلى أولي العلم من أجل العلم لا من أجل غيره.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، والذين يخشون ربهم هم العلماء، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

ولما كان السحرة قد بلغوا في علم السحر مبلغ الرسوخ فيه، وهو معنى هذه المرتبة، بادروا إلى الانقياد والإيمان حين عرفوا من علمهم أن ما جاء به موسى عليه السلام حق، ليس بالسحر ولا الشعوذة، ولم يمنعهم من ذلك التخويف ولا التعذيب الذي يتوعدهم به فرعون.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فحصر تعقلها في العالمين، وهو قصد الشارع من ضرب الأمثال.
وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

ثم وصف أهل العلم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٠].
إلى آخر الأوصاف وحاصلها يرجع إلى أن العلماء هم العاملون.

والأدلة أكثر من إحصائها هنا، وجميعها يدُلُّ على أنَّ العلمَ المعْتَبَر هو المُلَجِّئُ إلى العملِ به^(١)، والآثارُ في هذا الشأنِ كثيرةٌ وجليلةٌ، وما أردتُ إلا التمثيلَ والتنبيه، ولم أُرد استقصاءً ولا جمعًا.

ومفادُ ما ذكرته أنَّ رَبَطَ العلمِ بالعملِ أمرٌ حَتَمٌ لا محيصَ عنه، ولا مَفَرٍّ منه، بل إنَّ كثيرًا من الصَّدِّ عن سبيلِ العلمِ إنَّما يأتي من أنَّ كثيرًا من المشتغلين بالعلمِ ظاهرًا أبعدُ ما يكونون عن العملِ، فيُحْدِثُ هذا من التلبسِ ما تقبُّحُ نتيجته ويُسوءُ أثره. ولو أنَّ العلمَ ارتبطَ بالعملِ لأقبلَ النَّاسُ على سبيله زَرَافَاتٍ ووُحْدَانًا، فاللهُمَّ علِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَاَنْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ وَأَبُوهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَآلِهِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا. وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

عفا الله عنه وعن والديه

سبك الأحد - في يوم الاثنين

(٢٩ / ٤ / ١٤٢٩ هـ - ٥ / ٥ / ٢٠٠٨ م)

(١) «الموافقات» للشاطبي (١ / ٨٩).

فهرس الموضوعات

- ٣..... مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلَّفِ
- ٦..... الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ
- * قاعدة: كَلَّمَا كَانَتِ الرَّتَبَةُ فِي الْعِلْمِ عَالِيَةً، كَانَتِ الْمُؤَاخَذَةُ عَلَى فَقْدَانِ الْعَمَلِ شَدِيدَةً وَصَارِمَةً..... ١٢
- * قاعدة: الْعَالِمُ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ أَرْتَكِبَهُ ... ٢١
- عَالِمُ السُّوءِ، وَمِثْلُهُ..... ٤٠
- حَالُ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ..... ٤٣
- الْعِلْمُ بَيْنَ الصُّورَةِ وَالْحَقِيقَةِ..... ٥٣
- الدَّلِيلُ بِالْفِعْلِ أَرشَدُ مِنْ الدَّلِيلِ بِالْقَوْلِ..... ٥٩
- وَصَفُ الطَّرِيقِ، وَمَا يَلْزَمُ السَّفَرَ الْعَظِيمَ..... ٦١
- مَدَارُ صَلَاحِ أَمْرِ الْعَبْدِ..... ٦٣
- الْعَمَلُ مِنْ مَرَاتِبِ الْعِلْمِ، وَهُوَ ثَمَرَتُهُ..... ٦٥

٦٧	* العَقَبَاتُ الثَّلَاثُ
٧٠	مَنْزِلَةُ الْفِرَارِ
٨٣	تَسَاوُلٌ وَجَوَابٌ
٨٦	الْاِغْتِرَارُ بِالْعِلْمِ دَاعِيَةُ الْبَطَالَةِ وَتَرْكُ الْعَمَلِ
٩٠	جَهْلُ الْعَمَلِ
٩٧	الْخَلَاصُ فِي الْإِخْلَاصِ، وَإِنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَنْ لَمْ يُخْلِصْ
١١١	الفهرس

